أحلى قصائد الصوفية



مجدي كامل

دار الكتاب العربي

أحلى قصائد الصوفية

دار الكتاب العربي
سوريه ـ دمشق ـ الحجاز
ش مسلم البارودى ـ مدخل فندق الشموع ط ـ ١
هاتف : ٢٢٣٥٤٠١ ـ ٢٢٢٣٨١١
ص . ب : ١٣٣٤٤ فاكس : ٢٣٤٥٩٤
مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبد الخالق ثروة ـ شقة ١١
هاتف : ٣٩١٦١٢٢ فاكس : ٢٦٩٤٤٤٨
رقم الإيداع : ٢٧٠٦/ ٩٧
الترقيم الدولى : 3- 22 - 5346 - 977
الطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ ، ١٠ ش أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

مجدى كامل





إهــداء

إلى روح التصوف الكامنة
داخل كل منا.

مجــدى

تقديم

لقد كان ظهور الشعر الصوفي في أدبنا العربي معاصرا لظهور التصوف ذاته. فقد عبر أوائل التصوف عن أنفسهم، وطرقهم، وحبهم الالهي شعرا، كما لوكانوا قد اختاروا هذا الفن الأدبي الرفيع حتي يكون وسيلتهم في نشر التصوف وأصوله. ومنذ فجرالتصوف، وحتي اليوم، يتخذ الصوفية من الشعر قالبا للتعبير عن "المحبة" التي تعني عندهم طريق الوصول إلي الله تعالي.

وقبل أن نتحدث عن هذا اللون من الشعر الصوفي وخصائصه، يجدر بنا أن نعرف في البداية معني التصوف نفسه.

لقد عرف البعض التصوف علي أنه فلسفة المسلمين، علمهم في الأخلاق، كما قال آخرون إنه منطق المسلمين، وفي تحديد معني كلمة «التصوف» يطالعنا أكثر من رأي وتفسير، فهناك من يقول إن كلمة «التصوف» مأخوذة من كلمة «صوفيا» اليونانية، ومعناها، الحكمة.

وهناك من يقول ان الكلمة منسوبة إلي لبس الصوف الخشن الذي تعود الصوفية لبسه منذ القدم، وهناك من يقول هي نسبة إلي قبيلة «صوفة» التي كانت منقطعة لخدمة الكعبة، وهناك من يقول: ان الكلمة نسبة إلي «الصفة» وهي مكان بأخر مسجد الرسول ﷺ، وهناك من يقول، ان الكلمة نسبة إلي الصفاء والمصافاة.

وهناك من يقول غير ذلك من الآراء والتفاسير، ومهما كان القول والرأي فإن علماء الأخلاق والتهذيب الروحي، يقولون، إن حقيقة التصوف الكاملة الفاضلة هي مرتبة «الاحسان» التي يفسرها الرسول عليه الصلاة والسلام في حديثه المشهور بقوله، «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ومعنـي هذا أن التصوف الصـادق هو الذي يقوم علـي اخلاص العبـادة لله، بلا تصنع ولاتكلف، ودون رياء أو نفاق، وذلـك يقتضي أن يكون الانسـان مسلما حـقا، وأن يكون مؤمنا صـدقا، ويحـسن الجمع بين اسلامـه وايمانه، ويزينهمـا باحسانه واتقـانه، عن طريق المراقبة لله، والمحاسبة للنفس، وقبل أن يصير الحساب إلي غيرها، كمـا قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحـاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتهيأوا للعرض الأكبر، يوم تعرضون علي ربكم لاتخفي منكم خافية».

وهناك اصطلاحات صوفيـة تشير إلي هذه المعاني، كالصفاء وهو عند الصـوفية يقصد به التوحيد الخالص الذي اقرت به كل الارواح قبل خلق الأجساد.

وهناك التـواضع وهو واحـد من أهم الاخلاق الصـوفـية التي يتـحلي بهـا المبتـدىء، والواصل علي السواء، وهو علاج لما جبلت عليه النفس من الكبر.

وهناك رمـوز صوفيـة كالخـمر مـثلاً ويقـصد بهـا انوار الله والسكر ويقصـد به سكر الارواح. وهناك ما يعـرف عند الصوفـية بتجـلي الاسماء الالهـية، وهي حالـة من الترقي الصوفي، تكون بعد الفناء التام.

وينبغي أن نلاحظ أن التصوف ليس همهمات ولاتمتمات، وليس خروجا علي شريعة الله في قليل أوكثير، فالتـصوف الصحيح أساسه التقيـد بالقرآن والسنة، والخضوع لأوامر الله وأحكامـه، وكل من خرج علي حكم الله وأمـره، فدعـواه أنه متـصوف دعـوي باطلة، لايقرها شرع ولاعقل.

والتصـوف ليس بالمظاهر والأشكال، ولابلبس المرقـعات أو تعليق المسـابح، بل هو أن يعمـر الإنسان صدره بـالصلة بالله، والخوف منه، والرجاء فـيه، والله جل جـلاله يقول في سورة الطلاق: «ومن يتق الله يجعل له مـخرجا ويرزقه من حيث لايحـتسب، ومن يتوكل علي الله فهو حسبه، ان الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا».

وهناك كثير من ادعيـاء التصوف يتوهمون أو يزعمون أن التصـوف معناه عدم السعي أو عدم العمل، ويظنون أن التصوف كسل وبطالة، ونفور من الجهد والاجتهاد في شعاب الحياة الفاضلة الطيبة، ولو قبلنا هذا التصوير المنحرف للتصـوف لكان نكبة علي المجتمع الاسلامي، وكـان تمردا علي توجيه الحق جل جلاله الذي يقـول في سورة الجمعة، «فإذا

قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله وأذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون».

ويظهر أن الذين حملوا علي التصوف وأهله تلك الحملة القاسية الشعواء، كانوا متأثرين بتلك الصورة التي رسمها للتصوف أولئك الادعياء الذين لم يصدقوا في ايمانهم واحسانهم، ولم يتقنوا العمل الجامع بين خيري الدنيا والآخرة. مع أن الأثر الاسلامي الحكيم يقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

وعلي الرغم من أن البعض يرجع بأصول التصوف إلي أيام الصحابة، بل إلي أيام النبوة، الا أن الأكثر شيوعا بين الباحثين هوأن البداية الحقيقية للتصوف كنمط متفرد من التقرب إلي الله كان ابان القرنين الثاني والثالث الهجريين. وهما القرنان اللذان شهدا ميلاد الشعر الصوفي، وهكذا فإن بدء الشعر الصوفي، هو نفسه بدء التصوف.

وما أن جاء القرن السادس، حتي كان الشعر هو أكثر أدوات التعبير الصوفي شيوعا.

والحب الصوفي هو أكثر ما يميز به شعر الصوفيين، ويجعل من أشعارهم قصائد نورانية تخلب اللب، وتستحوذ علي الفؤاد.

فالحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الالهية موضوعا يدور حوله، وفيه يصف الحب ولذته، ومايجده من لوعة وأسي أو قرب ووصال. وكذلك ما يمر به في تصوفه من مقامات وأحوال، ومجاهدة مستمرة للنفس، وما يتعرض له من فيض رباني، والهام قلبي، وسمو روحي.

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الالهي الغامر الذي نراه ينقسم شقين: شق يتعلق بحب الله تعالي للعبد.. واخر يتعلق بحب العبد لله، وكلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون.

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء علي عدد من أشهر شعراء الصوفية، الذين قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعًا وتراثًا انسانيًا خالدًا آملين من المولي عزوجل ان يحظي برضاك، واستحسانك.

مجدى حسين كامل

شغلت قلبي..

أحنُ بأطرافِ النهارِ صبابةً

وباللّيلِ يدعوني الهوى فأجيبُ

وأيامنا تفني وشوقي زائدٌ

كأنَ زمانَ الشوقِ ليسَ يغيبُ

« سمنون المحب »

هذا الشاعر الصوفي الذي عاش في بغداد وتوفي فيها سنة ٢٩٨هـ صاحب مدرسة شعرية متفردة، يصعب تجاهلها، سواء عند الحديث عن الشعر العربي، بوجه عام، أو الصوفي علي وجه الخصوص. وسمنون المحب ليس هو اسم شاعرنا الحقيقي، وإنما كان هذا هو اللقب الذي أطلقه عليه معاصروه، لإنه توقف أمام المحبة، فجعلها طريقه للوصول إلي الله، ووصل فيها إلي منتهي المنتهي.

كما كان سمنون المحب ينسج في المحبة الالهية غزلياته، حتي أصبح معروفا بتخصصه في المحبة، متفردا في الحديث عنها بلسان العاشق، لدرجة أنه إختص باسم «المحب»، دون سائر شعراء الصوفية ممن عاصروه.

كما أنهم وصفوا كلامه بانه «أحسن كلام، وشعره لايدور الا عن الصد والهوي والجفا والصبر والرجا والوجد والعتاب والشوق والوصال والبين والبكاء والعذاب والصبابة».

يروي «الهجويري» في كتابه «كشف المحجوب» عن سمنون المحب وكراماته، أن سمنون كان عائدا من الحج، فتوقف بمدينة «فيد» فطلب أهلها منه أن يحدثهم، ولما اعتلي سمنون المنبر، وجد نفسه يتحدث والناس يتشاغلون فيما بينهم فلا يستمع اليه أحد، فالتفت سمنون إلي قناديل المسجد وقال، «اني أتحدث اليك».. فاصطكت القناديل وتحطمت كلها.

ولكن «سمنون المحب» لم يكن لقب شاعرنا الوحيد، فهناك لقب آخر أطلقه هو علي نفسه هو «سمنون الكذاب» ووراء ذلك قصة يرويها المؤرخون، وتبدأ ببيتين من الشعر أنشدهما سمنون علي النحو التالي:

وليس لي سواك حظٌ — فكيفما شئتَ فامتحنّي

ان كان يرجو سواكَ قلبي — لانلتُ سُؤْلي ولا التمنّي

ويقال انه لم يكد سمنون ينشد بيتيه هذين، حتي ابتلي باحتباس البول وذاك هو الامتحان، وأخذ يتلوي من الألم، ويدور في الكتاتيب، يرجوا الصبية أن يدعوا الله أن يعجل بشفائه قائلا: ادعوا لعمكم الكذاب، اشارة إلي تراجعه عما قاله في بيتيه، واظهاره للجزع، والتأدب بآداب العبودية. وعندما أطلق بوله قال: يارب تبت اليك، أي تبت عن طلب الامتحان.

ويتفرد سمنون المحب دون غيره من شعراء الصوفية بأن معظم أشعاره عبارة عن ترانيم عشق قصار، فلا يوجد في شعره قصيدة مطولة، بل مقطوعات متفرقة لاتزيد الواحدة علي أربعة أبيات.

وسنقدم هنا بعض المقطوعات الشعرية المتفرقة التي تعبر عن الارتباط الوثيق بين الشعر والمحبة عند سمنون، وكيف كان هذا الشعر رقيقا للغاية، وكيف كان سمنون نفسه يبرر هذه الرقة بقوله: لايعبر عن الشيء الا بما هو أرق منه، ولاشيء أرق من المحبة.

حنين قلوب العارفين إلي الذكر — وتذكارهم وقت المناجاة للسرِّ

ولاعيش إلاَّ مع رجالٍ قلوبهم — تحنُّ إلي التقوي وترتاحُ للذكرِ

أُديرت كؤوس للمنايا عليهمو — فأغفوا عن الدنيا كاغفاءِ ذي السُّكرِ

همومهمو جوالةٌ بمعسكر — به أهل ودِّ الله كالأنجم الزهرِ

فأجسادهم في الأرض قتْلي بحبه — وأرواحهم في الحُجْبِ نحو العلا

فما عرسوا إلاَّ بقرب حبيبهم — وما عرجوا عن مس بؤسٍ ولا ضرٌّ

سكُونٌ إلي روح اليقين وطيبه — كما سكن الطفل الرضيع إلي الحِجْرِ

بكيتُ ودمع العين للنفس راحةٌ — ولكنَّ دمعَ الشوقِ يُنكي به القلبُ

وذكري لما ألقاه ليس بنافعي — ولكنه شيء يهيجُ به الكربُ

فلو قيل ما أنت؟ لقلتُ معذَّبُ ... بنار مواجيد يُضرِّمها العتبُ
بليتُ بمَنْ لا أستطيع عتابه ... ويعتُبني حتي يُقال لي الذنبُ

* * *

أفديكَ بل قَل أن يفديكَ ذو دنفٍ ... هل في المذلّة للمشتاق من عارِ
بي منك شوقٌ لو أنَّ الصخر يحمله ... تفطَّر الصخر عن مُستوقَد النارِ
قد دبَّ حبُّك في الأعضاء من جسدي ... دبيب لفظَي من رُوحي وإضْماري
ولاتنفستُ الا كنت مع نفسي ... وكل جارحةٍ من خاطري جاري

* * *

ضَاعفْ عليَّ بجهدك البلوي ... وابلغْ بجهدك غاية الشكوي
واجْهَدْ وبالِغْ في مهاجرتي ... واجهرْ بها في السرِّ والنجوي
فاذا بلغتَ الجهدَ فيَّ فَلَمْ ... تترك لنفسك غايةً قصوي
فانظرْ فهل حالٌ بيَ انتقلت ... عما تُحب بحالةٍ أخري

* * *

وكان قلبي خاليًا قبل حبكم ... وكان بذكر الخلق يلهو ويمزَحُ
فلما دعا قلبي هواك أجابه ... فلستُ أراه عن فِنائك يبرحُ
رُميت ببينٍ منك ان كنتُ كاذبًا ... إذا كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ
وان كان شيءٌ في البلاد بأسرها ... إذا غِبت عن عيني بعيني يلمحُ
فإن شئتَ واصلني وان شئت لاتصلْ ... فلستُ أري قلبي لغيرك يصلحُ

* * *

تجرَّعتُ من حاليه نُعمي وأبْؤسا ... زمانٌ إذا أمضي عَزَاليه أحْتسي
فكم غمرة قد جرَّعني كؤوسها ... فجرَّعتُها من بحر صبري أكؤسا

تدرَّعتُ صبري والتحفتُ صروفه وقلتُ لنفسي الصبر أو فاهلكي أسي

خطوبٌ لو أن الشُّمَّ زاحمنَّ خطبها لساختْ ولم تدركْ لها الكفُّ ملمسا

* * *

أنا راضٍ بطول صدِّك عنِّي ليس الا لأن ذاكَ هواكا

فامتحنْ بالجفا صبري علي الودِّ ودعني معلَّقًا بِرجَاكَا

* * *

شغلتَ قلبي عن الدُّنيا ولذَّتها فأنتَ والقلبُ شيءٌ غير مفترقِ

وماتطابقتِ الأحداقُ من سِنَةٍ الا وجدتُك بين الجفن والحدقِ

* * *

ولو قيل طأ في النار أعلمُ أنَّه رضيٌ لكَ أو مُدنٍ لنا من وصالِكا

لقدَّمتُ رِجلي نحوها فوطئتُها سروراً لأنّي قد خطرتُ ببالِكا

* * *

أحنُّ بأطرافِ النهارِ صبابةً وبالليل يدعوني الهوى فأجيبُ

وأيامُنا تُفنَى وشوقيَ زائدٌ كأنَّ زمان الشوقِ ليس يغيبُ

* * *

يعاتبني فينبسط انقباضي وتسكن روعتي عند العتابِ

جري فيَّ الهوى مُذْ كنتُ طفلاً فمالي قد كبرتُ علي التصابي

* * *

أمسي بخديَّ للدموع رسومُ　　　أسفاً عليك وفي الفؤاد كلومُ

والصبر يحسُنُ في المواطن كلها　　　إلاَّ عليكَ فإنَّه مذمومُ

* * *

أنت الحبيب الذي لاشك في خَلَد　　　منه، فإنْ فقدتك النفسُ لم تعشِ

يامعطشي بوصالٍ أنتَ واهبُهُ　　　هل فيك لي راحةٌ إن صحتُ، واعطشي

* * *

كان لي قلبٌ أعيش بِهِ　　　ضاع منِّي في تقلُّبِهِ

رب فارْدده عليَّ فقد　　　ضاق صدري في تطلُّبِهِ

وأغث مادامَ بي رمقٌ　　　ياغياثَ المستغيث بِهِ

* * *

ياواحد الحسن..

أحلى الهوى أن يطولَ الوجدُ والسقمُ
وأصدق الحب ما حلتْ به التهمُ
ليتَ الليالي أحلامًا تعودُ لنا
فربما قد شفي داءَ الهوى الحلمُ

« عفيف الدين التلمساني »

ينتسب عفيف الدين التلمساني إلى "تلمسان". وكان ميلاده بها سنة ٦١٠هـ ويرجع أصله إلي احدي عوائل الكوفة، وتنقل كثيرا في البلاد، حتي وصل مصر وأقام فيها، وأنجب ابنه الشاعر المشهور شمس الدين التلمساني.

ويعد العفيف التلمساني ـ كما كان ينادي ـ من الصوفية الذين أثاروا الجدل، ودخلوا في معارك فكرية، وفلسفية، انتهت باتهامه بالكفر والزندقة، وبأنه من أتباع ابن عربي، ومن القائلين بوحدة الوجود،إلي الدرجة التي أطلق عليه ابن تيمية» الفاجر التلمساني» الملقب بالعفيف.

ولكن التلمساني كان رغم جميع اتهامات خصومه شاعرا كبيرا، وكان له شعر غزلي يشرحه شرحا صوفيا علي طريقته، ولكن حتي هذا الشعر لم يسلم من نقد عماء عصره، الناقمين عليه، حتي انه قيل عنه من جانب أحدهم «لحم خنزير في طبق صيني» نسبة إلي جمال وجودة قالبه الشعري.

ولم يترك التلمساني شعرا كثيرا عقب وفاته سنة ٦٩٠هـ، اللهم بعض المقاطع الشعرية المتناثرة هنا وهناك، أو الأبيات. ومن شعره الصوفي يقول:

ياغائبين ووجدي حاضر بهم	وعاتبين وذنبي في الغرام هم
بنتم فلا طرف الا وهو مضطرب	شوقا ولا قلب الا وهو مضطرم

وهناك أبيات رائعة تعكس مدي ماكان يتمتع به التلمساني من حس شعري، وقدرة علي صياغة أفكاره الصوفية بطريقة محكمة، وفي أسلوب عذب، يدخل القلب بلا عناء. يقول التلمساني في هذه الأبيات الحلوة:

أبدًا بذكرك تنقضي أوقاتي	مابين سمّاري وفي خلواتي
ياواحدَ الحسنِ البديعِ لذاته	أنا واجدُ الأحزانِ فيكَ لذاتي
وبحبك اشتغلت حواسي مثلما	بجمالِكَ امتلأتْ جميعُ جِهاتِي

* * *

حسبي من اللذات فيكَ صبابةٌ عندي اشتغلت بها عن اللذاتِ
ورضاي أني فاعلٌ برضاكَ ما تختار من محوي ومن إثباتِي

* * *

يا حاضراً غابت له عاشقه عن كل ماض في الزمان وآتِ
حاسبت نفسي فلم أر واحداً منها خلا وقتًا من الأوقاتِ

* * *

ويقول عفيف:

مَنَعَتْهَا الصِّفَاتُ وَالأَسْمَاء أَنْ تُرَى دُونَ بُرْقُعٍ أَسْمَاءُ
قَدْ ضَلَلْنَا بِشَعْرِهَا وَهْوَ مِنْهَا وَهَدَتْنَا بِهَا لَهَا الأَضْوَاءُ
كَيْفَ بِتْنَا مِنَ الظَّمَا نَتَشَاكَى يَالِقَوْمِي وَفِي الرِّحَالِ المَاءُ
كَمْ بَكَيْنَا حُزْنًا بِمَنْ لَوْ عَرَفْنَا كَانَ مِنْ شِدَّةِ السُّرُورِ البُكَاءُ
نحْنُ قَوْمٌ مِتْنَا وَذَلِكَ شَرطٌ فِي هَوَاهَا فَلْيَنْعَشِ الأَحْيَاءُ
وَأَقَامَتْ نُفُوسَنَا فِي حِمَاهَا لاَ بِنَا بَلْ بِهَا لِيَصْفُو الصَّفَاءُ
فَالْمُلَبِّي إِذَا دَعَتْ هِيَ مِنَّا وَمُحِيبُونَهَا بِهَا الأَصْدَاءُ
يَا أَبَا الخَيْرِ قُمْ لَكَ الخَيْرُ فَاطْرِبْ مَسْمَعَ الفَقْرِ مِنْكَ ذَاكَ الغِنَاءُ
لاَتَفُتْ كَاسَكَ الَّتِي مِنْ لَمَاهَا هِيَ فِيهَا تَنَافَسَ النُّدَمَاءُ
لَمْ أَقُلْ قَدْ عَدَتْكَ كَأْسُكَ لَكِنْ رُبَّمَا طَوَّحَتْ بِكَ الصَّهْبَاءُ
إِنَّمَا يَشْرَبُ الَّتِي تَسْلُبُ العَقْلَ نُدَامَى هُمُ لَهَا أَكْفَاءُ
أَسْكَرُوهَا بِهِمْ كَمَا أَسْكَرَتْهُمْ فِي ابْتِدَاهُمْ بِهَا فَتَمَّ الوَفَاءُ

فَجَزَاءٌ مِنْهَا وَمِنْهُمْ وِفَاقٌ ... وَوِفَاقٌ مِنْهَا وَمِنْهُمْ جَزَاءُ

قَدْ تَسَمَّتْ بِهِمْ وَلَيْسُوا سِوَاهَا ... فَالْمُسَمَّي أُولَئِكَ الأَسْمَاءُ

ويقول:

أَيُنْكِرُ الوَجْدُ أَنِّي فِي الهَوَى شَحِبٌ ... وَدُونَ كُلِّ دُخَانٍ سَاطِعٍ لَهَبُ

وَمَاسَلَوتُ كَمَا ظَنَّ الوُشَاةُ وَلاَ ... أَسْلُو كَمَا يَتَرَجَّى العَاذِلُ التَّعِبُ

فَإِنْ بَكَى لِصَبَابَاتِي عَذُولُ هَوىً ... فَلِي بِمَا مِنْهُ يُبْكِي عَاذِلِي طَرَب

نَاشَدْتُكَ اللهَ يَارُوحِي اذْهَبِي كَلَفًا ... بِحُبِّ قَوْمٍ عَنِ الجَرْعَاءِ قَدْ ذَهَبُوا

لاَتَسْأَلِيهِمْ ذِمَامًا فِي مَحَبَّتِهِمْ ... فَطَالَمَا قَدْ وَفَى بِالذِّمَّةِ العَرَبُ

هُمْ أَهْلُ وُدِّي وَهَذَا وَاجِبٌ لَهُمُ ... وَإِنَّمَا وُدُّهُمْ لِي فَهْوَ لاَيَجِبُ

هُمْ أَلْبَسُونِي سِقَامًا مِنْ جُفُونِهِمُ ... أَصْبَحْتُ أَرْفُلُ فِيهِ وَهْوَ يَنْسَحِبُ

وَصَيَّرَتْ أَدْمُعِي حُمْرًا خُدُودُهُمُ ... فَكَيْفَ أَجْحَدُ مَامَنُّوا وَمَا وَهَبُوا

هَلِ السَّلاَمَةُ إِلاَّ أَنْ أَمُوتَ بِهِمْ ... وَجْدًا وَإِلاَّ فَبُقْيَايَ هُوَ العَطَبُ

إِنْ يَسْلُبُوا البَعْضَ مِنِّي فَالجَمِيعُ لَهُمْ ... وَإِنَّ أَشْرَفَ أَجْزَائِي الَّذِي سَلَبُوا

لَوْ تَعْلَمُ العَذَبَاتُ المَايِسَاتُ بِمَنْ ... قَدْ بَانَ عَنْهَا إِذَنْ مَا اخْضَرَّتِ العَذَبُ

وَلَو دَرَى مَنْهَلُ الوَادى الذَّى وَرَدُوا ... مَنْ وَارِدُوا مَائِهِ لاَهْتَزَّهُ الطَّرَبُ

إِنِّي لأَكْتُمُ أَنْفَاسِي إِذَا ذُكِرُوا ... كَيْلاَ يُحَرِّقَهُمْ مِنْ زَفْرَتِي اللَّهَبُ

وَتُرْسِلُ الدَّمْعَ عَيْنِي فِي مَنَازِلِهِمْ ... كَيْلاَ تُسَابِقَهَا فِي سَحِّهَا السُّحُبُ

كَذَا لِكُلِّ مُحِبٍّ غَيْرَةٌ لَهُمُ ... وَعِنْدَ كُلِّ غَيُورٍ فِطْنَةٌ عَجَبُ

أُسَائِلُ البَانَ عَنْ مَيْلِ النَّسِيمِ بِهِمْ ... سُؤَالَ مَنْ لَيْسَ يَدْرِي فِيهِ مَا السَّبَبُ

وَتِلْكَ آثَارُ لِينٍ مِنْ قُدُودِهِمُ ... مَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ فَاهْتَزَّتْ لَهَا القُضُبُ

وارحمتا للعاشقين..

ياصاح ليس علي المحب ملامة

ان لاح في أفق الصباح صباح

لاذنب للعشاق ان غلب الهوي

كتمانهم، فنما الغرامُ، فباحوا

« السهروردي »

يلقب شهاب الدين السهروردي عادة بـ"الصوفي القتيل". نسبة إلي مقتله بأمر من صلاح الدين الأيوبي بعد أن اتهمه عدد من خصومه من علماء حلب بالكفر والخروج علي السنة. وقد حاول البعض ومنهم ابن صلاح الدين الملك الغازي انقاذه. نظرا لما يجمعهم به من صداقة. دون جدوي. حيث أصر خصوم السهروردي علي تنفيذ أمر القتل. وهكذا لقي حتفه.

ويري البعض أن خطأ السهروردي الوحيد كان هو محاولته الخوض في فلسفة الدين في عصر ليس لدي علمائه استعداد لذلك، كما كان تصوفه يختلف كثيرا عن أقرانه، مما قلبهم عليه، فعجلوا بالتخلص منه، وهو لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره.

ورغم سني عمر السهروردي التي لم تتجاوز الأربعين الا أنه ترك للمكتبة العربية والصوفية نحو ٤٩ كتابا معظمها في التصوف، ومنها «رسالة أصوات أجنحة جبرائيل»، و«كلمة التصوف»، و«مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم»، و«الغربة الغربية»، و«الكلمات الذوقية والنكات الشوقية»، و«مؤنس العشاق»، و«الواردات الالهية»، و«البارقات الالهية والنعمات السماوية»، و«لوامع الأنوار».

ومع ذلك يبقي كتاب «حكمة الاشراق»، الذي ضمنه السهروردي فلسفته في التصوف «الاشراقية» هو أهم كتبه، وهي استداد للسلسلة التي بدأها الحلاج، الذي ورد ذكره في احدي مواضع هذا الكتاب، وهو (السهروردي) يدعوه باسم «أخيه»، ويؤلف كتبه في شكل توجهات صوفية، وعلي هيئة رؤي.

وللسهروردي الذي ولد بـ«سهرورد» من أعمال «زلجان» أشعار رائعة، كلها يفيض رقة وعذوبة، في إطار فلسفي، وروحاني، قد لايضاهيه غيره.

وسوف نقرأ معًا احدي نورانيات السهروردي، وهي بعنوان «وارحمتا للعاشقين»:

أبـداً تحـن الـيكـم الأرواح ووصـالكم ريْحـانُهـا والرَّاحُ

وقلوبُ أهلِ ودادكم تشـتـاقكمُ وإلي بهـاء جـمـالكم تـرتاحُ

وارحـمـتـا للعـاشـقين تحـمَّلوا ثقل المحـبـة والهـوي فـضَّـاحُ

* * *

أهل الهـوي قسـمـان: قسـم منهمـو كـتـمـوا، وقسـمٌ بالمحبة بـاحـوا

فـالبـاحـثونَ بِسـرهم شربوا الهـوي صِـرفًا فـهزهـموا الـغرام فـبـاحـوا

والكتـمـون لسـرهم شـربوا الهـوي ممزوجـةً فـحَـمـتْـهـمـو الأقـداحُ

* * *

بالسـر إن بـاحـوا تبـاحُ دمـاؤهم وكـذا دمـاء البـائحين تُبـاحُ

وإذا همـو كـتـموا تحـدَّث عنهـمـو عنـد الوشـاة المدمعُ السَّـفـاحُ

وبدت شـواهدُ للسَّـقـام عليهـمـو فـيـهـا لمشكل أمـرهـم إيضـاحُ

خُـفض الجَناحُ لكم، وليس عليكمـو للـصـبِّ في خـفْـضِ الجناح جُـناحُ

فـإلي لقـاكـم نفـسـهُ مـرتاحـةٌ وإلي رضـاكم طرفُـهُ طـمـاح

عودو النُور الوصل من غسق الدجي فـالـهـجـر ليـل والوصـال صـبـاح

* * *

صـافـاهـمـو فـصـفـوا له، فـقلوبهم في نـورها المشكاة والمصـبـاح

وتمتـعـوا فـالوقـت طاب بقـربكم راق الشـراب وراق الأقـداح

ياصـح ليس علي المحب مـلامـة إن لاح في أفق الـصـبـاح صـبـاح

* * *

لانسب للعشاق ان غلب الهوي　　كتمانهم، فنما الغرام، فباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها　　لما دروا أن السماح رباح
ودعاهمو داعي افحقائق دعوة　　فغدوا بها مستأنسين وراحوا

* * *

ركبوا علي سفن الوفا، ودموعهم　　بحر، وشدة شوقهم ملاح
والله ماطلبوا الوقوف ببابه　　حتى دعوا، وأتاهموا المفتاح
لايطربون لغير ذكر حبيبهم　　أبدا، فكل زمانهم أفراح

* * *

حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم　　فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهمو عنهم كشفت لهم　　حجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم　　ان التشبه بالكرام فلاح

* * *

أيامنا بلقائكم أفراح　　وجميع أيام الملاح ملاح
قل للمحب إذا تهتك في الهوي　　ان التهتك في الغرام مباح
واخلع عذارك لاتبال بعاذل　　واخلع عذارك لاتبال بعاذل

* * *

أهل المحبة حين طاب شرابهم　　باعوا النفوس لحبهم وارتاحوا
شربوا كؤوس الحب في حان الصفا　　فتمايلت سكرا بها الأرواح
بالانكسار تحملوا في حبه　　فبدا عليهم من رضاه سماح

* * *

خلع الحبيب عليهو خلع الرضا وأنا لهم من فضله الفتاح

ملأ الحبيب قلوبهم من نوره فشذاهمو من عطره فواح

تحيي الحبيب ذكرهم وبنورهم وتزول عند لقاهمو الأتراح

كل القلوب لهم تحن تشوقا وتحبهم، وبحبهم ترتاح

* * *

الوسيلة..

شـــربت بكاســـات الغـــرام ســـلافـــة

وصـــرت أنا الســـاقي لمن كـــان حـــاضـــرا

بهـــا انتعـــشت روحي وجـــسمي ومـــهجـــتي

أدير عليـــــهم كـــــرة بعـــــد كـــــرة

« عبدالقادر الجيلاني »

الامام محيي الدين عبدالقادر الجيلاني أحد الذين نالوا مكانة رفيعة في تاريخ التصوف، ووضعوا قواعد طريقتهم الصوفية، التي نشرها أتباعه بعد وفاته في بغداد سنة ٥٦١هـ ولم يكن الامام الجيلاني شاعرا بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما كان ــ كما يرى بعض المؤرخين ــ الشعر عنده أداة تناسب التعبير عن المعاني الصوفية.

كما أن الإمام الجيلاني الذي ولد في «جيلان» وراء طبرستان، سنة ٤٧١هـ وعاش ومات في بغداد ولم تعرف له أية دواوين مطبوعة، ولا مخطوطة، وانما بضعة قصائد متفرقة هنا وهناك، قام مشكورا بجمعها الأستاذ الجليل يوسف زيدان في ديوان كبير إختار له اسم «ديوان الجيلاني».

وفي شعر الجيلاني الحنبلي المذهب الذي عمل بالتدريس والإفتاء، نجد حقائق التصوف وقد إختبأت بين حروف الكلمات، ويشار إليها تلويحا وتلميحا لنفس الأسباب، التي جعلت شعر الصوفية رمزيا.

ومن أهم قصائد ديوان الجيلاني رائعته المعروفة باسم «الوسيلة»، وتقع في ٤٨ بيتا، وهي تعبير ـ كما يقول الباحث الجليل «يوسف زيدان» الذي قلم بجمعها ـ عن فرط المحبة وفيضان الوجد، وقد عمد الامام فيها إلي الرموز الصوفية كالخمر والحان والكأس، وغير ذلك من الرموز الحسية، التي طالما أشار بها الصوفية لمعانيهم الذوقية.

وها هي ذى «الوسيلة» بأبياتها التي تمثل أحد روائع الشعر الصوفي:

ولما صفا قلبي وطابت سريرتي — وناد مني صحوي بفتح البصيرةِ

شهِدْتُ بأن الله مولي الولايةِ — وقد مَنَّ بالتصريفِ في كُلِّ حالةِ

سقاني الهيِ من كئوس شرابِهِ — فأسكرنى حقًا فَهِمْتُ بسكرتِي

وحكمني جمع الدِّنان بماحوي وكل ملوك العالمين رَعَّيتي

وفي حاننا فأدخل تسر الكأسَ دائراً وما شرب العشاق الا بَقيَّتي

* * *

رفعت علي من يدعي الحبَّ في الوري فقربني المولي وفزتُ بنظرةِ

وجالت خيولي في الأراضي جميعها وزُفَّتْ لي الكاساتُ من كل وجهةِ

ودقت لي الريات في الأرض والسما وأهل السما والأرض تعلم سطوتي

وشاءُوسُ ملكي سار شرقا ومغربًا فصرت لأهل الكرب غوثًا ورحمةِ

فمن كان مثلي يدعي فيكم الهوي يطاولني إن كان يقوي لسطوتي

* * *

أنا كنت في العُلْيَّا بنور محمدٍ وفي قاب قوسين إجتماع الأحبةِ

شربت بكاسات الغرام سلافةً بها إنتعشت روحي وجسمي ومهجتي

وصرت أنا الساقي لمن كان حاضراً أدير عليهم كسرةً بعد كسرةِ

وقفت بباب الله وحدي موحداً ونوديت ياجيلاني: أدخل لحضرتي

ونوديت ياجيلاني: أدخُلْ ولاتخفْ عُطيتُ اللوا من قبل أهل الحقيقةِ

* * *

ذراعي من فوق السموات كُلِّهَا ومن تحت بطنِ الحوت أمددتُ راحتي

وأعلم نبت الأرض كم هو نبتةٌ وأعلم رمل الأرض عَدداً لرملةِ

وأعلم علم الله أحصي حروفه وأعلم موج البحر عَدداً لموجةِ

وماقلت هذا القول فخراً وإنما أتي الإذْنُ حتي تعرفوا مِنْ حقيقتي

وماقلتُ حتي قيل لي قُلْ ولاتخفْ فأنتَ وليٌّ في مقامِ الولايةِ

* * *

أنا كنت مع نوحٍ أشاهد في الوري بحاراً وطوفاناً علي كف قدرتي
وكنت وإبراهيم ملقي بناره وما برد النيرانَ إلا بدعوتي
وكنت مع إسماعيلَ في الذبح شاهداً وما أُنزلَ المذبوحَ إلا بفتيتي
وكنت مع يعقوبٍ في غشو عينه وما برئت عيناه إلا بتفلتي
وكنت مع ادريسَ لما ارتقي العلا وأسكنَ في الفردوسِ أحسن جنةِ

* * *

وكنت وموسي في مناجاةِ ربه وموسي عصاه من عصاي استمدتِ
وكنت مع أيوب في زمنِ البلا وما برئت بلواه الا بدعوتي
وكنت مع عيسي وفي المهدِ ناطقًا وأعطَيْتُ داوداً حلاوةَ نغمتي
ولي نشأةٌ الحبٌ من قبل آدم وسري سري في الكونِ من قبلِ نشأتي
أنا الذاكُر المذكورُ ذكراً لذاكرِ أنا الشاكرُ المشكورُ شُكراً بنعمتي

* * *

أنا العاشقُ المعشوقُ في كل مضمرٍ أنا السامعُ المسموعُ في كل نغمةِ
أنا الواحدُ الفردُ الكبُير بذاته أنا الواصفُ الموصوفُ ـ علْمُ الطريقةِ
مَلَكْتُ بلاد الله شرقًا ومغربًا وان شئتُ أفنيت الأنامَ بلحظةِ
وقالوا: فأنت القطب ـ قلت مشاهداً وتالٍ كتابَ الله في كل ساعةِ
وناظُر ما في اللوح من كل آيةٍ وما قد رأيتُ من شهودٍ بمقلتي

* * *

فمن كان يهوانا يجي لمحَلّنَا ويدخل حمي السادات يلق الغنيمةِ
فلا عالمٌ إلا بعلمي عالمٌ ولا سالكٌ الا بفرضي وسنتي

ولا جـامعٌ إلا ولي فـيـه ركـعـةٌ | ولامنبـرٌ إلا ولي فـيـه خُطْبـتي
ولولا رسـولُ الله بـالعـهـدِ سـابقٌ | لأغْلَقْتُ أبـوابَ الجـحـيم بعظمـتي
مُـريدي للك البشـري تكون علي الوفـا | وإن كنتَ فـي هَمٍّ أُغِـثْكَ بِهِـمَّـتي
مـريدي تمسك بي وكن بي واثقًـا | لأحـمـيكَ في الدنيـا ويوم القـيامة
وكن يامـريدي حـافظًا لـعـهـودنا | أكن حـاضـر الميـزان يَوْمَ الوقـيـعـة
وإن شـحـتْ الميـزانُ كـنت أنا لهـا | بعين عـنايات ولطـف الحـقـيـقـة
حَـوَائـجكُم مُـقـضـيـةٌ ـ غـيـر أنّني | أريدُكُـمُـو تمشـون طُرْقَ الحـمـيـدة
وأوصِـيكُمـو كـسـر الـنفـوس فـإنّها | مـراتب عـزٍّ عـند أهلِ الطـريقـة
ومَنْ حـدثـتـه نفـسـه بتـكبـر | تجـدهُ صـغـيـرًا في عـيـونِ الأقلة
ومن كـان في حـالاتـه مـتـواضعًـا | مع الله ـ عَـزَّتْهُ جَـمـيـعُ البـرية

* * *

مريضة الأجفان..

وقـــفـــا بي على الـطلـول قـليــــلا

نـتــــبــــاكي، بـل أبـك مما دهـانـي

الهـــوى راشــقي بغــيــر ســهـــام

الـهــــوى قـــاتـلي بـغـــيـــر سنان

« ابن عربي »

هذا هو شيخ الصوفية الأكبر بلا منازع. انه أيضا الفيلسوف الصوفي الأول، وأكثر أعلام الصوفية اثارة للجدل في عصره، وماتلته من عصور. انه أبوبكر محمد بن علي، وشهرته محيي الدين قال فيه محبوه: انه القطب والعارف بالله والولي، وقال فيه أعداؤه: انه الزنديق والمشرك.

وينحدر هذا القطب الصوفي الكبير من قبيلة حاتم الطائي، واسمه «المرسي»، حيث كانت ولادته بـ«مرسية» ببلاد الأندلس سنة ٥٦٠هـ، وأيضا عرف هناك باسم «ابن سراقة»، أما في الشرق فقد أعطوه اسم «ابن عربى» بدون أداة التعريف تمييزا له عن القاضي أبي بكر ابن العربي المتوفي سنة ٥٤٣هـ.

وقد عاش ابن عربي بأفكاره، ومواقفه، بفلسفته، ومذهبه، حياة حافلة كانت تثير غيرة خصومه وجلبت عليه الكثير من العداوات، والخصومات، إلي حد إتهامه ذات مرة «بالكفر والالحاد» أثناء اقامته بمصر واصدار حكم عليه بالموت إلا أنه نجا من القتل باعجوبة!

ولابن عربي مؤلفات أربعمائة قد لايفوقها شهرة أي من مؤلفات الصوفية الأخري، وأشهر هذه المؤلفات موسوعته الكبري في التصوف التي أطلق عليها اسم «الفتوحات المكية»، ويليها في الأهمية كتاب «فصوص الحكم»، وهو الذي ألب عليه الفقهاء، وأشهرهم الامام ابن تيمية، وهناك أيضا كتابه «التفسير الصوفي للقرآن».

ولم يكن ابن عربي الذي استقر نهاية حياته في دمشق حتي توفي ودفن بسفح جبل «قاسيون»، مجرد قطب من أقطاب الصوفية، وانما كان رائدا من رواد مدرستهم الشعرية، يصدح في سماء الروح، ويغرد في عوالم النفس، وله أشعار كثيرة أعذبها ماجاء في ديوانه «ترجمان الأشواق» إحدي رائعات الغزل الصوفي.

وفي قصائد ابن عربي مشاهدة صوفية تظل النفس فيها مأخوذة بالجمال الالهي تجلياته في الموجودات، فتحب الله في كل شيء، كما تحب كل شيء من أجل الله،

ويستغرقها الحب لله، فاذا جاءت الغزليات لهند، أو ليلي أو سعاد مثلا فإنما المقصود هو الله، فهو وحده الجمال الحقيقي الجدير بالحب.

وسوف نعرض هنا لابن عربي قصيدته «مريضة الأجفان» وهي احدي رائعات شعره الخالد:

مرضي من مريضة الأجفانِ — علِّلاني بذكرها، علِّلاني

هفت الورْق بالرياض وناحتْ — شجْوُ هذا الحمامِ مما شجاني

بأبي طفلةٌ لعوب تهادَي — من بنات الخدور بين الغواني

طلعتْ في العيانِ شمسًا، فلما — أفلتْ أشرقتْ بأفقِ جَناني

* * *

ياطلولاً برامةٍ دارسات — كم رأتْ من كواعبٍ وحسانِ

بأبي ثم بي غزالٌ ربيبٌ — يرتعي بين أضلعي في أمانِ

ماعليه من نارها فهي نور — هكذا النورُ مُخمدُ النيران

* * *

يا خليليَّ عرجا بعِناني — لأري رسْم دارها بعِياني

فاذا ما بلغتما الدار حُطا — وبها صاحبيَّ، فَلتبكياني

طال شوقي لطفلةٍ ذات نثرِ — ونظامٍ ومنبرٍ وبَيانِ

* * *

من بناتِ الملوك من دار فُرسٍ — من أجلُّ البلاد من أصبهانِ

هي بنتُ العراق بنتُ إمامي — وأنا ضدَهَا سليلُ يماني

هل رأيتهم ياسادتي أو سمعتم — أن ضدَّين قطُّ يجتمعانِ

* * *

وقفا بي على الطلولِ قليلاً نتباكي، بل أبْكِ مما دهاني

الهوى راشقي بغير سهامٍ الهوى قاتلي بغير سنانِ

عرفاني إذا بكيتُ لديها تُسعداني على البُكا تُسعداني

* * *

واذكرا لي حديث هندٍ ولبنى وسليْمي وزينبٍ وعنانِ

ثم زيدا من حاجر وزرود خبراً عن مراتع الغزلان

واندبانى بشعرِ قيسٍ وليلى أكؤُسًا للهوى بغير بَنانِ

والهوى بيننَا يسوقُ حديثًا طيبا مطربا بغير لسانِ

لرأيتم ما يذهبُ العقلُ فيه يمنٌ والعراقُ معتنقانِ

* * *

كذب الشاعر الذي قال قبلي وبأحجار عقْله قد رماني

« أيها المنكح الثريّا سُهيلاً عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان

هي شاميةٌ إذا ما استهلّت وسُهيلٌ إذا استهلّ يماني

* * *

إلهي..

إلـهي ضـــاع عـــمـــري في غـــرورٍ

وفـي لـهــــــوٍ وفـي لـعـبٍ يـطـولُ

إلـهي غـــــافـــــر الـزلاتِ يـا مَـنْ

تـعـــــالي، مــــالـه أبـدا مـــثـــيلُ

« أحمد البدوي »

شاعرنا الصوفي شيخ العرب أبو العباسي السيد أحمد البدوي القرشي الذي ولد بمدينة فاس بالمغرب سنة ٥٩٦هـ ، وتوفي في طنطا سنة ٦٧٥هـ ، صاحب الطريقة الأحمدية التي كان لها أعمق الأثر في تاريخ مصر دينيا وإجتماعيا واقتصاديا وفكريا.

وقد هاجر السيد أحمد البدوي مع والده وأهله في صغره إلي مكة حيث تلقي علي يد معلميها القرآن، والعلوم الشرعية، ثم هاجر إلي العراق ثم إستقر به المقام في مصر التي استقبلته أروع استقبال بعد أن بلغت شهرته الآفاق لغذارة علمه وقوة إيمانه، وتقواه، وعندما استقر في طنطا تحولت بوجوده من قرية صغيرة إلي مدينة كبري.

ومن أهم الاثار التي تركها السيد البدوي «حزبه» وهو عبارة عن دعاء وإبتهال إلي الله وإستعاذة به. وأيضا» أوراده» حيث تخصص الطريقة الأحمدية لكل ليلة وردًا، وترتبط الأوراد بالصلوات الخمس.

ومن آثاره أيضا «الوصايا» وهي مدعاة للتقوي، تحض علي الفضيلة، والإكثار من ذكر الله والصلاة. وكذلك «الصلوات» وهي تسابيح لله.

إلهي أنت للاحسان أهلٌ ... ومنك الجود والفضل الجزيلُ
إلهي بات قلبي في هموم ... وحالي لا يُسرٌّ به خليلُ
إلهي تب وجُد وارحم عُبَيْداً ... من الأوزار مدمعهُ يسيلُ
إلهي ثوب جسمي دنسته ... ذنوبٌ حملُها أبداً ثقيلُ

* * *

إلهي جُد بعفوك لي فإني ... على الأبواب منكسرٌ ذليلُ
إلهي حُفني باللطف يامن ... له الغفرانُ والفيضُ الجزيلُ
إلهي خانني جَلَدي وصبري ... وجاء الشيْبُ واقتربَ الرحيلُ
إلهي داوني بدواء عفو ... به يشفي فؤادي والغليلُ

* * *

إلهي ذابَ قلبي من ذنوبي ... ومن فِعْلِ القبيح أنا القتيلُ
إلهي ردّني بِرداءِ أنسي ... وألبسْني المهابةَ ياجليلُ
إلهي زحزِحِ الأسواء عني ... وكنْ لي ناصراً نِعْمَ الكفيلُ
إلهي سيدي، سندي وجاهي ... فمالي غير عفوك لي مقيلُ

* * *

إلهي شُتتتْ جيْش إصطباري ... همومٌ شرحُها أبداً يطولُ
إلهي صرتُ من وجدي أُنادي ... أنا العاصي المسئ، أنا الذليلُ
إلهي ضاع عمري في غرور ... وفي لهوٍ وفي لعبٍ يطولُ
إلهي طالما أنعمْتَ منّا ... بجودٍ منك فضلاً يستطيلُ

* * *

إلهي ظاهراً أدعوك ربي ... كذلك باطنًا أنت الجليلُ
إلهي عافني من كلِّ داءٍ ... بجاهِ مُحمدٍ نعْم الخليلُ
إلهي غافر الزلأت يامنْ ... تعالي، ماله أبدا مثيلُ
إلهي فاز من ناداكَ ربيّ ... أتاه الخيرُ حقّا والقبولُ

* * *

إلهي قلْتَ ادعوني أجِبكُمْ ... فهاك العبدُ يدعو ياوكيلُ
إلهي كيف حالي يوم حَشْرٍ ... إذا ماضاق بالعاصي مقيلُ
إلهي لا إله سواكَ ربيّ ... تعالي، لاتُمثلهُ العقولُ
إلهي مسّني ضرٌّ فأضحي ... به جسمي يُبلبله النحولُ

إلهي نجني من كلّ كربٍ ... ويسّر لي أموري باكفيلُ

إلهي هذا الأوقاتُ تمضي ... بأعمارٍ لنا، وبها تزولُ

إلهي والني خيراً، وأحسنْ ... ختامي عندما يأتي الرسولُ

إلهي ياسميعُ أجبْ دعائي ... بطه من تيسّرُ له الحمُولُ

فصلِّ عليه ربيّ كلُ وقتٍ ... صلاةً لاتحولُ ولاتزولُ

وآلٍ والصّحاب ذوي المعالي ... وفي طي الكلامِ هُمو الفحُولُ

* * *

أطيار الجنان..

بكت عيني غداةَ الدمعِ دمعًا

وأخري بالبكا بخلتْ علينا

فعاتبتُ التي بخلتْ علينا

بأن غمضتها يومَ التقينا!

« جلال الدين الرومي »

لقد كان الشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي أحد أئمة التصوف، وعلما من الأعلام البارزين في التصوف والوالنورطوعا ويسعدنى بالنوح الذي كان يعد من أكبر علماء عصره أيضا. وقد اختار الامام الرومي، الذي يتصل نسبه بأبي بكر الصديق، رضي الله عنه، التصوف سبيلا في حياته العملية، وإختاره فلسفة روحية لفكره، وفنه الشعري الرفيع.

وشعر الرومي الذي عاش في القرن السابع الهجري (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ) البناء الذي يستمد عناصره من الانسان، ويتعمق في بحث مشاكله الروحية والعملية، ويحاول أن يرسم له المثل العليا في الفكر والعمل، يعني بالحياة التي يحياها البشر، كما يعني بالمصير، الذي يطمحون اليه.

وعلي الرغم من أن الرومي ليس مبدع هذا الاتجاه في التصوف، الا أنه كان أفصح الألسنة في التعبير عنه، وألمع العقول في إبداع فلسفته، وإبتكار أفكاره.

ويعد كتاب جلال الدين الرومي الشهير «المثنوي» أشهر كتبه علي الاطلاق، وأحد عيون التراث الصوفي، وأعظم ماجاءت به قريحة الفرس، حتي عصرنا هذا. ورغم أنه كتب في أصله بالفارسية الا أنه نظرا لأهميته ومكانته ومنزلته العظيمة، فقد كثرت حوله الشروح والتراجم في مختلف اللغات.

والمثنوي عبارة عن مجموعة مقطوعات مما يطلق عليه في الأدب الفارسي كلمة «غزل»، وهو مؤلف من ستة أجزاء، وقد خلا شعر جلال الدين كله من المدح للسلاطين.

ويقول الرومي في مقدمة الكتاب: «المثنوي»: هذا الكتاب أصول أصول الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر، وبرهان الله الأظهر، مثل نور مشكاة فيها مصباح، يشرق اشراقا أعظم نورا من الاصباح، وهو جنان

لبنان، ذو العيون والأغصان.. الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار فيه يفرحون، ويطربون وهو كنيل مصر شراب الصابرين، وحسرة علي آل فرعون الكافرين».

ويعد شعر جلال الدين الرومي كما هو الحال في قصصه وحكاياته التي وردت في كتابه «المثنوي» إنعكاسا لطريقته في معالجة الأسرار الخلقية، وحل رموز التصوف الرقيقة، والإبانة عن الخفايا من الحكم والعظات البالغة.

إن شعر الرومي ما هو إلا تعبير عن الحقائق الصوفية وصورة مجسمة للعشق الالهي رسالة العشق من البداية إلي النهاية، وعلي حد تعبيره «لوخلا قلب الانسان من العشق لم يبق من آدميته، إلا صنم من لحم ودم بدل الحجارة، والشعب الخالي من العشق لايعدو أن يكون أكواما من التراب.

ومعظم شعر الرومي باللغة الفارسية اللهم إلا عددا من قصائده الذي نظمها باللغة العربية، وهي أيضا لا يعوزها الإتقان والجمال للفظي والروحي، ونذكر منها هذا الأبيات:

بكت عيني غداة الدمع دمعًا	وأخري بالبكا بخلتْ علينا
فعاتبتُ التي بخلت علينا	بأن غمضتها يوم التقينا!
فديتُك، ياذا الوحي آياته تتري	تفسرها سرًا وتكني بها جهرا
وأنشرت أمواتًا وأحييتهم بها	فديتك ما أدراك بالأمر وما أدري!
فعادوا سكاري - في صفاتك - كلهم	وما طعموا إثمًا ولاشربوا خمرا
ولكن بريقَ القربِ أفني عقولهمُ	فسبحانَ من أرسي وسبحانَ من أسري
سلامٌ علي قومٍ تنادي قلوبهم	بألسنة الأسرار: شكرًا له شكرا
فطوبي لمن أدني من الجلدِ دَلْوَه	وفي الدلو حُسْنُ يوسفَ - قال: يابشرا!!
يطالع في شعشاع وجنه يوسف	حقائقَ أسرارٍ يحيطُ بها خبرا
تجلي عليه الغيب واندك عقلُه	كما اندكَ ذاكَ الطور استهدمَ الصخرا
فظل غريقُ العشقِ روحًا مجسمًا	ونورًا عظيمًا لم يدر دونه سترا

وهكذا يناسب شعر الرومي في حلاوة وطلاوة، وتناغم وإنسجام، حاملا معه فكره، ومواقفه، وإيمانه وعقيدته، وفلسفته الصوفية التي تركز علي الانسان.

وسوف نقدم هنا قصيدة ابن الرومي الرائعة «أطيار الجنان»، والتي يطلق عليها أيضا «قصر عمر»، ويتناول فيها حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، شارحا من خلالها فلسفته الصوفية ونصائحه الروحية، وأفكاره النورانية:

عبرة حارت لمعناها العقولُ	عن رسولِ الروم في أرضِ الرسولِ
جاء يطوي البيدَ سعيًا والحضر	يسأل الأحياءَ عن قصرِ عمر
أين قصر ضم خير المالكينَ	والهدي والطهر والنور المبين
قصره لاشك مرفوع البناءِ	أنصفوا لو شيدُوه في السماءِ
قال بعضُ الناس: ياضيفَ العربْ	قصرهُ فوقَ الدراري والذهب

* * *

لاتراه في الملا عين البصر	بل تراه في العلا عين الفكرْ
في سماء المجد مرفوع المنار	ركنهُ زهدٌ وذلٌ وانكسارْ
التآخي فيه والعدل بناء	ومباني الناس غش ورياءْ
كل من أغلق عينيه هواه	فهو في الظلمة حاشا أن يراهُ
منزل الأرواح صدقٌ ووفاء	منزل الأجسامِ لونٌ وطلاءْ

* * *

ما القلبي بات بالشكوي ينوح	إن قومي حالهم من قوم نوح
أسد لوا جهلاً علي النور الحجابا	بل أصموا السمع واستغشوا ثيابا
إن نار الحقدِ في قلب الحسودِ	حرمته ظل جنات الخلودِ

ومـضي الرومي في شـوق عظيم يسـأل العـابرَ عنه والمقـيم
فـأهاج الشـوقَ منه والهـيـامْ صـوتُ أعـرابيـة بين الخـيـامْ

* * *

تحت ذاك النخل في حصن حصينٍ حي مـولانا «أمـيـر المؤمنين»
قـد تخلي عن جـوادٍ ومـتـاع ينشد الكنزل المرجي في البـقـاع
قـال: يا سـبحـانه رب الوجـودِ أين ذاك القـصـر أو أين الجنودْ؟
لم أكن من قبل أخشي قـيصـراً لا، ولا سطوة آسـاد الشـري
فلمـاذا أوهن الخـوفُ جناحي من أمـيـر نامَ في غـيـر سـلاحٍ؟

* * *

أحـصـون يا إلهي وقـلاع تتـواري خلف هاتيكَ الرقـاع
من يخف سلطان ذِي العرش المجيدْ خـافـه كل قـريب وبعـيـدْ
وبخـوف الله فـاز المؤمنون حـيث لاخـوف ولاهم يحـزنون
ملك العُربْ جـمـيـعـا والعُـجمْ نائـمٌ في غـيـر جندِ أوحـشمْ
عِـبَـرةٌ تروي لجيلٍ بعد جيلْ نـام ظـلُ اللهِ فـي ظـل الـنخـيلْ

* * *

وصـحـا الخطاب من بعـد المنامْ مثل صحو الشمس من بعد الغمامْ
أقـبل الضـيف وأهداه السـلامْ وسـلام الود يتلوه الكلامْ
سـأل الخطاب ذا الجـاه العظيمْ عن صـفـات المبدعِ البـر الرحـيمْ

تسكن الأرواحُ أجســـــادَ الأنامِ وهي نور كـيف تحـيـا في الظلامِ

قــال سـبـوح إله الملكوتْ فـاطـر الأكـوان قـد سي النعـوتْ

* * *

أسكن الأرواحَ أو كـارَ الصورْ فـاستجابت حين ناداها القدرْ

هـذا الأرواح أطيـار الجنانِ فـارقت أوطانهـا للامتحـانِ

هـي كـالعطُر طوته الزهراتُ وهي كـالفكر حـوته الكلمـاتُ

إنما الألفـاظُ نطـق ورسـومْ والمعـاني روح هـاتيك الجسـومْ

هبطت من وقـتـهـا من لازمـانْ وثوت في أرضِهـا من لامكانْ

* * *

عـالمُ الغـيِب لـه السـر المصـونْ أمـره في خلقِـه كن فـيكونْ

كـلم الـورد بسـر فـابتـسمْ عـن أريـج علـم الـطيـر النـغمْ

وهو أيضا قـال سـراً للحجـرْ فـجـلا منه عـقيـقـا للنظرْ

وهو قـد أفـضي بسـر للسحاب فـارتوت من فيضه حمر الهضابِ

عندمـا أوحـي بسـرِ للتـرابْ صـار انسـانًا لـه الكون استجـابْ

ذلك العـذب الفـرات الهـاطلُ في فم الحـيـات سم قـاتـلُ

ليس يحبـو جـوهر العلم النقـاءْ غـيـر أصـداف قلوب الأوليـاءْ

جـدد الخبـزُ حـيـاةً ونماءْ حـينمـا أصـبح للحي غـذاءْ

ومـتي أذعن للبحـر السـحابْ صـار بحراً موجه طامي العبابْ

صافِ محبوبك إن رمت الصفاءْ　　وأفن في المحبوبِ إن رمت البقاءْ

وتجلي سره للأنبياءْ　　فتساموا فوق معراج السماءْ

* * *

كم عروسٍ جليت للناظرينْ　　وهي لاتهدي لكل الخاطبينْ

إنزع الأصبع عن سمع اليقينْ　　تستجب روحك للروح الأمينْ

قيد الجسم بها انشق الحجرْ　　ويد الروح لها انشق القمرْ

قطر نيسان إذا ما أمطرا　　في فم الأصداف أضحي جوهرا

كُنْ جليسَ الأنبياءِ المرسلينْ　　في كتاب اللهِ ربِ العالمينْ

* * *

سقاني محبوبي..

تجلي لي المحبوبُ في كل وجهةٍ
فشاهدتُه في كل معنى وصورةِ
وخاطبني مني بكشفِ سرائري
فقال أتدري مَنْ أناقلتُ منيتي

« إبراهيم الدسوقي »

هو العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي (٦٣٣ ـ ٦٧١هـ) ينتهي نسبه إلي الإمام علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه. وهو من أجلاء مشايخ مصر، وطريقته "البرهامية" تنتشر في مصر وسوريا وتركيا والحجاز واليمن وحضرموت، ومنها فروع كثيرة كالشرنوبية والشهاوية، والسعيدية الشرنوبية.

وللدسوقي كلام كثير علي لسان أهل الطريق منشور في كتبه القيمة، وأهمها «الجواهر» المعروف باسم «جوهرة الدسوقي».

وهناك ترجمة مطولة للشعراني يقول فيها: ان الدسوقي من نسل الحسين، وتفقه علي مذهب الإمام الشافعي، ثم إقتفي آثار الصوفية، وجلس في مرتبة الشيوخ، وحمل الراية البيضاء، وعاش من العمر ثلاثة وأربعين سنة، لم يغفل خلالها عن مجاهدة النفس والهوي والشيطان.

أما مذهب الدسوقي الذي دفن بمدينة دسوق، ولايزال مسجده يقصده الالاف حتي يومنا هذا فقد لخصه العارف بالله نفسه في العبارة التالية:

«من عرف الله وعبده فقد أدرك الشريعة والحقيقة فأحكموا الحقيقة والشريعة ولاتفرطوا إن أردتم أن يقتدي بكم، ولم يكن اسم الحقيقة إلا لأنها تحقق الأمور بالأعمال، ومن بحسر الشريعة تنتج الحقائق، والشريعة هي الشجرة والحقيقة هي الثمرة، والشريعة أصل والحقيقة فرع، والشريعة تجمع كل العلوم المشروعة، والحقيقة تجمع كل العلوم الخفية».

وللدسوقي أشعار رائعة في الحب الالهي المفضي إلي الفناء، وشهود الوحدة، وإن كان يقترب قليلا من ابن الفارض، إلا أنه ربما يكون أكثر شفافية، وتلقائية، ورقة، وعذوبة. وهاهي ذى قصيدة الدسوقي النورانية «سقاني محبوبي»:

تجلي لـي المحبـوبُ في كل وجـهـةٍ فـشـاهـدته في كل مـعـني وصـورةِ
وخـاطبني مـني بكشفِ سـرائري فـقـال أتدرى من أنا قلتُ منيـتي
فـأنت منائي بـل أنا أنت دائمًـا إذا كنتَ أنتَ اليومَ عينَ حـقـيقـتي

* * *

فـقـال كـذلك الأمـر لكنه إذا تعـينت الأشـيـاءُ كنت كنسـختي
فـأوصلت ذاتي بـاتحـادي بذاته بغـير حلولٍ بل بتـحـقـيق نسبـتي
فـصـرت فناءً فـي بقـاءٍ مـؤيدٍ لـذات بديمومـة سـرمـديةِ

* * *

وبيـني عني فـأصـبـحت سـائلاً لذاتي عن ذاتي لشـغلي بغـيـبتي
وأنظـر في مـرآة ذاتي مـشـاهداً لذاتي بذاتي وهي غـايةُ بغـيـتي
فـأغـدو وأمـري بين أمـرينْ واقفٌ علومي تمحوني ووهمِي مـثـبـتِي

* * *

خـبـأتُ له في جنةِ القـلب منزلاً تـرفـع عن دعـد وهند وعـلوةِ
ومـا شـهـدت عـيني سوي عين ذاتها وإن سـواهـا لايلـم بـفكرتي
بـذاتي تـقـوم الـذات في كل ذروةٍ أجـددُ فـيـهـا حـلةً بعـد حـلةِ

* * *

سـقـانيَ محـبـوبي بكأس المحـبـةِ فـتـهتُ عـن العـشـاقِ سكراً بـخلوتي
ولاح لنا نـور الجـلالـةِ لوأضـا لصُم الجـبـالِ الرسـايات لـدُكّت
وكنت أنـا الساقـي لمن كـان حـاضـراً أطوفُ عليـهم كَـرّةً بـعـد كـرةِ

* * *

وناد مـني سـراً بسـر وحكمـةٍ وأن رسـول الله شـيـخي وقـد وتِي

وعــاهدني عـهــداً حـفـظتُ لعـهــدهِ ... وعــشتُ وثيــقًــا صــادقًــا بمحــبــتِي
وحكّمني فــي ســـائر الأرض كُلِـهـــا ... وفـي الجنِّ والأشـــبـــــاح والمرديّـةِ

* * *

وفي أرض صين الصين والشرق كلِّها ... لأقــصـي بلاد اللــه صــحّت ولايـتي
أنا الحــــرف لا أُقـــرأ لـكل مـناظرٍ ... وكلُّ الـوري من أمـــر ربّي رعــيَّــتي
وكم عـــالـمٍ قـــد جــاءنا وهو منكرٌ ... فـصــارَ بفـضل اللهِ من أهـل خـرقـتي

* * *

ومـــا قلـتُ هذا القـــول فـــخــراً وإنما ... أتي الإذن كـي لايجـــهلون طـريقـــتي
غنيت عـن الدنيـــا بفـــيـضِ عطـائه ... وأيُّ عـطايـاهـم يداني عـطيّـــــتي؟
وصـرتُ علي بُعْـدِ المسافـاتِ واصـلاً ... لأدني دنُّـو في إرتـفـــاعي لـغـــايـتي

* * *

فـوجه الحـبيب الحقِّ مـشرق وجـهـتي ... ونورُ الحـبـيـب الحقُّ سـاطع قـبلتي
وفي القلب أشـواقٌ يترجع فـيـضُـهـا ... عن الألقِ الســامي الي قُدْسِ حـضْـرةِ
شـهـــدت وشـاهـدنا، وطابت نفُـوسنا ... وقــد لــذَّ لي ذليِّ إليـــه وخــشـيـــتِي

* * *

أحـنُّ عـلـي ذلِّ، وأهـوي عـلـي هـدي ... وأســـري علـي علـم لأنوارِ طـلعــــةِ
رضـــيتُ به حـــتي دخـلـت رياضــــه ... فـأنعـم بهــا من روضــــة أيِّ روضــةِ
ومـــا لـذة العــشــــاقِ إلا يـقـــينهُم ... بشــمل جــمـــيع بـعـد طـول تشـتتِ
وأغـــسلُ قلـبي من ســواك، ولم أجــد ... لنـفــــسي إلا نـور ذاتك بغْـــيـــتِي
تعـــاليتَ بـالعطْـفِ الكريم، رعـــاية ... فَــبـــاركْـتَ زلاتّي وآمّنْـتَ روعــتِي

* * *

تعشقت نور الله..

إذا قــــيل لـي أطـلب قـلت ربـي مـطلبي

وان قــيل لي اشـــرب قلـت أنواره كـــأسي

وكل عـــهـــود قـــد تـنكـس أصلـهـــا

ولـكن عـــهـــد الـلـه بـاق بلاطـمـس

« الشيخ على عقل »

هذا الشاعر يمثل السمو الروحي في الأدب الصوفي كما يبدو لمن يتتبع مانظمه من أشعار في الحب الالهي، وما خلفه من ترانيم صوفية، ومدائح نبوية تفيض رقة، وتقطر عذوبة. والشاعر الصوفي الكبير الشيخ علي عقل ليس مجرد أحد أقطاب الشعر الصوفي فقط، وانما رائد من رواد الاتجاه الحسي في مدرسة الأشعار الصوفية ـ إذا جاز التعبير ـ وصاحب صوت شعري شجي، يؤثر القلب، ويستحوذ علي الفؤاد. أنظر اليه يقول:

وان الوردَ يذبُلُ بعد وقت ... وورد الحب كانَ به ذُبولي

وريُّ الناس من ماء ولكنْ ... شرابُ الحب يذكي منْ غليلي

أداري الحبَّ حتي لوّيراني ... أخو وجد تشككَ في نُحولي

وبي نارٌ لو استقصي لظاها ... لحقر وجدَه وحَذا سبيلي

ولي بالوجدِ سرٌ لا يُضاهَي ... ومَا أنَا في المحبَّةِ بالهزيلِ

ورغم أن حياة الشيخ علي عقل لم تمتد طويلا حيث وافته المنية عن أربع وخمسين عاما فقط (١٨٩٤ ـ ١٩٤٨م) إلا أنه ترك آثارا عظيمة تدل علي ماكان له من مكانة وتأثير علي الساحة كأحد علماء عصره في التصوف والعلوم الشرعية.

فقد كان الشيخ علي عقل الذي فقد بصره صغيرا، ووهب حياته لدراسة علوم القرآن والدين، ودرس في الأزهر الشريف، علما من أعلام عصره، يقصده طلاب العلم من كل صوب، ويتعشقه المريدون، وتنسج حوله مجالس الذكر والانشاد.

ومن أشهر أعمال هذا الصوت الصوفي العذب ديوانه الشعري، الذي أطلق عليه اسم «الالهام»، ويضم بين ضفتيه مانظمه من قصائد روحية، وترانيم صوفية، ومدائح نبوية.

وسوف نورد هنا قصيدة «تعشقت نورالله» التي تمثل قمة السمو الروحي في الشعر الصوفي:

قتلتُ هوي نفسي، فعشتُ بلا نفْسِ   وجافيتُ أنسي، فانحدرتُ إلي الأنْسِ
ولم أُبد أمري للعباد، فطالما   كتمتُ الذي ألقي عن الجنِّ والإنْسِ
وأدركتُ بالوجدانِ سرَّ أحبتي   وعاينتُ آياتِ اليقينِ بلا لَبْسِ

* * *

وعشتُ زماني لست أحفل بالوري   وكيف، وقلبي هام في مشهدِ القُدْسِ
وعلمت غيري ما أفادَ من الهُدي   فلم يبْقَ ذو فهمٍ لديَّ علي طمْسِ
إذا وُسّد الناسُ القبورَ، فإنني   جعلتُ التقي والذكر بين الوري رمْسي

* * *

ولم أخْشَ من بأس ولم أخشَ طاغيا   ومن يخشَ ذات الله لم يَرَ من بأسِ
وهل غيْرُ ذاتِ الله للنفسِ مطلبٌ   حرامٌ سوي الرحمنِ يدخلُ في نفسي
وتوجّتُ بالقرآن نفسي عقيدةً   أصونُ به نفسي من الزَّيغ والدسِّ
وما اتخذت روحي سوي الله غايةً   فتم الهدي للروح والقلب والحسِّ
وإن شرب الناس الطِّلا وتصببوا   فسُنَّةُ خلق الله في شربها كأسي

* * *

وإن رفع المثرون عُجبًا رؤسهم   رفعتُ بذكر الله فوق الوري رأسي
وإن جعلوا الشمس اهتداءً ليومهم   جعلتُ رضا ربي وآيته شمسي
وإن غرسوا زرعًا لنيل حصاده   وإن غرسوا زرعًا لنيل حصاده

* * *

تعشقتُ نور الله وهو بصيرتي   وقد وضح البرهان من آية الكرسي
ومذ شاهدت روحي جلالكَ وارتقتْ   تجّردتُ عن معْناي في عالم الحسِّ
أحبّك ياربي محبّةَ موقنٍ   ومن قوةِ الايمانِ أُصبح أو أُمسي

* * *

فـؤاديَ قـد أبعدتُ عـن مشـهـد الوري فطُهِّـر في نجـواكَ من ظلمـةِ الرِّجْسِ

أطوف عـلي الأبـوابِ قلبيَ مُـــوجَعٌ وليس سـوي رحـماكَ لـلقلبِ من نِطْسِ

وأعـــد مني فـي الحبِّ علـمي بقـــدْرِه فليس غـرامي فــيـه يدرك عن قــيْسِ

* * *

ولم أعــشق الـدنيـا فـتلك مـجـازة تهيُّ لـلأخـري وفي فـوتهـا عـرُسي

لقـاؤُك يـارحـمنُ عـيـدي وعُـدتي ونُورك غـيـثي وهو لـي في الوري أُنسي

وبحُـرُك مـنه قـد لقـيتُ جـواهري بشـاطئـه سُـفـني علي لُجِّـهِ غَـطسي

* * *

وطيبُ الـوري ورْسٌ ومـسك وعنبـرٌ وطيـبي من مـحياك أسـمي من الورسِ

ولستُ مـن الدنيـا، أمـيلُ إلـي العـلا فـإنَّ عُـلا الدنيـا لأصـحـابه يُـنسي

أُمــتع أعــضـائي بـذكـركَ دائمًـا وهل غـيـرُ ذكْـر الله يسكنُ فـي نفـسي

* * *

وكُلُّ رجـائي أن أحـبك صـادقًـا إذ الصـدقُ في الوجدان مـرتبة القُـدْسِ

ومـا فـضلهُ وقـفٌ علي أيِّ عـالمٍ وحـقك مـا حُـدَّ العطاء علـي جنس

إذا رضي الرحــمن عن قلـب عَـبْـده جرت مـركَبُ الأقدار معـه علي اليبْس

* * *

تـخلَّ ولاتحـــفـلْ بجـنٍّ ولا انْـسِ وعشْ في هوي الرحـمن تسعـدُ بالأنْسِ

وأقـبل علي مـولاك بالقلب مـخلصًا وأسلـمْ وسلـم واتّجّـه

وخُـذْ لك بـالايمان أصـدقَ وجـهـة وطهـر بهـا نفـسًا عن الـغي والرجس

* * *

تجرد تجدْ مولاكَ أكبرَ ناصرٍ وفوض له ماكان في الغد والأمسِ

حياةُ الوري حلوٌ ومرٌ وإنما حلا المرءُ بالتوحيد من رقة الحسِّ

ومن لايري إلا الإله مراده حرامٌ عليه الخوضُ في العرشِ والكرسي

* * *

ومن يتعشق نُورَه وجلالَهُ فليس له التشبيبُ بالبدْرِ والشمسِ

وانك لو عظمْتَ دينَك عالمًا وعالمت بالحسْني وأدَّبتَ للنَّفسِ

وكنت علي الأحداثِ بالله راضيًا سواءٌ عليك الموتُ أو ساعةُ العُرْسِ

* * *

سعدْتَ من الدنيا بِربِّك محْسنًا ونلت من الأخري عطاء بلا بخْسِ

يقولون لي من أنت؟ قلتُ: موحدٌ إلي ربه يسعي ولم يَرمَن بأسِ

إذا قيل لي أطلبْ قلت ربِّيَ مطلبي وإن قيل لي أشربْ قلتُ أنواره كأسي

* * *

وكلٌّ عهودٍ قد تنكسٌ أصلها ولكنَّ عهد الله باقٍ بلا طَمْسِ

سلوني عن العشاق قد ذقتُ حُبهَم وإني لهم رأسٌ إذا كان من رأسِ

* * *

وما هم سوي أعضاء جسْمي وبزتي أصافحهم ما شئتُ لكن بلا لمسِ

وماحيلتي إلا انكساريَ في الحمي وإن إنكسار القلب يكشف عن قدسي

وحلوُ الهوي عندي لقاء أحبتي ومرُّ الهوي عندي وفي هجرهم تعْسي

* * *

وأعــرف رحــمــانــي وأُدركُ عــفــوهُ وأنهـضَ مــعـــتــزا ومـــا أنا بالمُنْسي

وانَّ حــبــال الوجــدِ تربط مــهـجــتــي وقلـبي بحب الـلـه يعــبـق كــالورسِ

وإن كنت فـي ســعــدٍ فــذلــك فــضلهُ وإن لم أكنْ من سادة العُرب والفُرْسِ

* * *

فــقل للذي يُزجي الشــراع دع الكريَ تجد سُفن الاحســانِ تجري على اليبسِ

وســـرْ مــوقــنا أن الاجــابة للهـــوي إذا مــادعــا الداعي ولاتكُ في حــدْسِ

فـكلٌّ الـذي تـرآه والكـون خـلقــــــهُ ومـــا نفع التــفــريقُ بالنوْع والجنسِ

* * *

حــسبتُ الهـوي سهــلاً فخُـضتُ عبـابَه فطوراً به أطـفـــو، وطوراً بـه غَطْسي

إلـي أن أتــتــنْـي مـنْ لــدُنه عــنـايــةٌ وصلــتُ بهـــا بَرَّ الســـلامــةِ والأنسِ

* * *

فطرة النفس..

والكل أنت بمعني لاخفاء به
والنور بحجبه كالماء في اللّبن
والعبدُ محتجبٌ في عزّ مالكه
دقت معارفه في الدهر والزمن

« أبو العباس المرسي »

المرسى أبو العباس أحد أعلام التصوف فى عصره ، وأحد الذين تركوا أثرًا كبيرًا بعد وفاتهم، فى مريديهم، وتلامذتهم وخاصة فى الاسكندرية حيث أقام معظم سنى عمره. والإمام العارف بال؛ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الخزرجى الأنصارى المرسى البلنسى، ولد فى مرسية ببلاد الأندلس، تلك المدينة التى نسب إليها فسمى "المرسى" فى سنة ٦١٦ هـ

وعلى الرغم من أن أبى العباس المرسى قد وفد الي الاسكندرية مع أستاذه ومعلمه أبي الحسن الشاذلي سنة ٦٤٢ هـ ، الا أن نجمه سرعان ما سطع فى سمائها، حتي أصبح كعبة الباحثين عن العلم، وخاصة بعد موت شيخه الشاذلى ، الذى تتلمذ على يديه.

كان المرسى يلقى الدروس ، ويلقن أتباعه ومريديه، مبادىء السلوك القديم، وسبل الوصول الى رضاء الله، وفلسفته فى الزهد ،التصوف، متخذًا من جامع العطارين مركزا لدعوته، وحلقة لدرسه.

وقد كان المرسى أبو العباس ذا حس مرهف، وعاطفة رقيقة ، وقلب ينبض بذكر الله، يجمع بين نفاذ البصيرة. وشفافية الرؤية، والنزوع الى الحكمة ، مما ظهر واضحا جليًا فيما خلفه من شعر رائع هو احدى الدرر التى تزين جبين الأدب الصوفى.

وسوف نعرض هنا لقصيدة المرسى أبو العباس «فطرة النفس» التى يشرح فيها فلسفته فى التصوف فى تناغم وانسجام وترابط رائع في لوحة شعرية جميلة مفعمة بالحلاوة والرقة والعذوبة.

إن كنت سائلنا عن خالصِ المننِ — وعن تآلف ذات النفسِ بالبدنِ

وعن تشبثها بالحظِّ مذ ألفت — أدرانها فغدَت تشكو من العَطنِ

وعن بواعثها بالطبع مائلةٌ — تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجنِ

وعن حقيقتها فى أصل معدنِها — لا ينثنى وصفُها منها إلى وثن

وعن تنزلها فى حكمها ولها — علمٌ يفرقها فى القُبح والحسَنِ

* * *

فاسمعْ هُديتَ علومًا عز سالكها — على البيان ولا يغررك ذو لَسنِ

قصداً الى الحقِّ لا تخفى شواهدُها — قامت حقائقها بالأصل والفننِ

يا سائلى عن علوم ليس يدركها — ذو فكرةٍ بمفهوم لا ولا فطنِ

لكن بنور عليٍّ جامعٍ خمدَت — له العقولُ وكلُّ الخلقِ فى وَسَنِ

خُذها اليك بحق لستَ جاهلهُ — والأمر مُطلعٌ والحقُ قيدنى

* * *

على الحقيقة خُذْ علم الأمور ولا — تحجبك صورتها فى عَالم الوطن

ففطرة النفسِ سرٌّ لا يُحيط به — عقل تقيد بالأوهامِ والدرنِ

لكنها برزت بالحكمِ قائمةٌ — حتى تآلفها السكانُ بالسَّكنِ

وكيْ يقال عبيدٌ قائمون بما — ألقى من الأمر قبل الخلق والمحن

* * *

والنفس بين نزول فى عوالمها — كآدمٍ وله حواءٌ فى قرَنِ

والروح بين ترقٍّ فى معارجها — وهى الموافق للتعريف والمننِ

من الحجاب دنت أنوارها فبدتْ — نوراً تنزل بين الماء والدِّمنِ

مثالها فى العُلا مرآة معدنِها — ألطافها خفية كالسِّر فى العلنِ

* * *

زيتــونـة زيتــهــا نورٌ لصـــاحــبــهـــا قــامتْ حــقــائقــهـــا بالأصـلِ والفَنَنِ

ونار دعـــوتـهـــا مـــاءٌ لشـــاربهـــا مُــدَّت هــدايتــهـــا فى الكــونِ والكُبَنِ

والكـل أنت بمـعنى لاخــــفـــاء به والنـور يحـجــبــه كـــالماءِ فى اللَّبَنِ

والعـــبدُ مـحــتـجـبٌ فى عـزِّ مـــالكه دقت مـــعـــارفـــه فى الدهرِ والـزمنِ

* * *

بحار الهوى..

يا من به علقت روحي فــــقـــد تلفت

وجـــدا فـــصــــرت رهينا تحت أهوائي

أبكي على شـــجني من فـــرقـــتي وطني

طوعــــا ويســـعــــدني بالنوح أعـــدائي

« الحلاج »

نحن هنا بصدد الحديث عن شاعر صوفى آخر بلغت شهرته الآفاق فى الشرق والغرب، انه الحسين بن منصور الحلاج . صاحب المأساة المشهورة فى تاريخ الفكر والتصوف باسم "مأساة الحلاج".

وقد ولد الحجاج ببلاد فارس سنة ٢٤٤ هـ ، واختلف الناس فى تسميته بالحلاج، بعضهم نسب ذلك إلى أبيه الذى كان يعمل بصناعة الحليج، وآخرون يقولون: إنه سمى كذلك لأنه كان يكاشف الناس بما في قلوبهم ، فأطلقوا عليه «حلاج الأسرار».

ورغم أن الحلاج، كان يطوف البلاد يبشر بالإسلام، ويعلم الناس طريقته، وكان يحاول هداية الانسانية كلها، عن طريق الاسلام الا أن نهايته كانت مأساوية بصورة مفزعة.

كان الحلاج بمجرد أن استقر به المقام فى بغداد، ينزل الى الناس يعظهم، يهديهم، وكان يلقى دعواه للهدايا شعرا فيسحر الألباب.

ولما ضاف رجال الدولة بنفوذ الحجاج، وصيحاته ونداءاته، ودعواته الاصلاحية، وخافوا أن يوقظ همة الناس، اتهموه بإدعاء الألوهية، والتزندق ، وشكوه الى الخليفة «المقتدر» فأمر بالقبض عليه.

واقتادوا الحلاج الى بغداد وناظر العلماء وتطاولوا عليه، ونفى ادعاء الألوهية، وذكر أنه ليس الا عبدا لله يؤمن به وبرسله، ولكنه يدعو الى الحق وينشد الخير للمسلمين ولا يقر الظلم، وتبرأ من الشهود الذين استدعوهم، واستعاذ بالله من الدعوى، وهاجت الجماهير المحتشدة خارج المحكمة، واستمر الحلاج متحفظا عليه مدة تسع سنوات الى أن صدر أمر باعدامه.

وقبل أن يضرب السياف عنقه كانت آخر كلمة له: «حسب الواجد أفراد الواحد له» فسمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ الا ورق له، ثم ضربوا عنقه، ولم يبق ببغداد الا من

شهد قتله، وصبوا على الجسد النفط وأشعلا فيه النار ثم حملوا الرماد على رأس منارة لتذروه الريح، ، وكان ذلك في سنة ٣٠٩ هـ ، ونصبوا الرأس يومين على الجسر ثم طيف به في خراسان.

وللحلاج كتب كثيرة تزيد على ٤٨ كتابا معظمها أحرق أو مذق، أو استولى عليه خصومه وأعداؤه، ولم يبق منها جميعا سوى «طاسين الأزل».

أما شعر الحلاج فقد بقى محفورا فى قلوب أحبائه، مستقرا فى صدورهم، ولم يستطع أحد أن يتخلص منه ككتبه، فقد كان الحلاج شاعرا روحيا ليس له مثيل، يلقى الشعر فيسحر الألباب.

وسوف نقدم هنا أحلى ما كتب الحلاج من شعر فى مواضع مختلفة، وفى أحداث مختلفة من حياته، وسنبدأ بأحلى ما كتبه في وصف موعد حب، ثم أشعار أخرى من أروع ما كتب فى الحب الالهى والتصوف:

لى حبيب أزور فى الخلوات | حاضر غائب عن اللحظاتِ
ما ترانى أصغى اليه بسرى | كى أعى ما يقول من كلماتِ
كلماتٍ من غير شكلٍ ولا نقْطٍ | ولا مثل نغمة الأصواتِ
فكأنى مُخاطبٌ كنتَ إيّاه | على خاطرى، بذاتى لذاتى
حاضرٌ غائب قريبٌ بعيدٌ | وهو لم تحْوِه رسُم الصفاتِ
هو أدنى من الضمير الى الوهمِ | وأخفى من لائح الخطراتِ

* * *

ومن أعجب الأشياء ظبيٌ مبرقعٌ | يشير بعنابٍ ويومى بأجفانِ
ومرعاهُ ما بين الترائبِ والحشا | ويا عجبًا من روضة وسط نيرانِ
لقد صار قلبى قابلاً كل صورةٍ | فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ

وبيتٌ لأوثان وكــعبـةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحف قرآن

أدينُ بدينِ الحبِ أنّى توجّهت ركائبه فالحبُ ديني وإيماني

لنا اسوةٌ في بشر هند وأختها وقيس ليلى ثم مي وغيلانِ

* * *

يا سر سر يدق حتى يخفى على وهم كل حي

وظاهراً باطناً تجلى لكل شيء بكل شي

ان اعتذاري اليك جهل وعظم شك وفرط عي

يا جملة لكل لست غيري فما اعتذاري اذا الي

أدنوا فيبدعني خوفي فيقلقني شوقٌ مُمكّن في مكنون أحشائي

فكيف أصنع في حب فيقتلني شوقٌ مُمكنٌ قد ملّ من سقمي أطبائي

قالوا تداو به منه فقلت لهم يا قوم هل يتداوى الداءُ بالدائي

فحبي لمولاي أضناني وأسقمني فكيف أشكو الى مولاي مولائي

* * *

وقال الحلاج وهم يقطعونه عضواً عضواً:

اقتلوني يا ثُقاتي ان من قتلي حياتي

ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي

أنا عند مَحْو ذاتي من أجل المكرمات

وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات

فاقتلوني واحرقوني بعظامي الفانيات

ثم مروا برفاتي	في القبور الدارسات
تجدوا سر حبيبي	في طوايا الباقيات

* * *

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت	الا وحبّك مقرونٌ بأنفاسي
ولا جلستُ الى قومٍ أحدثهم	الا وأنت حديثي بين جلاسي
ولا ذكرتُك محزونًا ولافرحـًا	وإلا أنت بقلبي بينَ وسواسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش	الا رأيت خيالاً منك في الكاس
ولو قدرْت على الاتيانِ جئتكمو	سعيًا على الوجه أو مشيا على الراس
ويا فتى الحقّ أن غنيتَ لي طربًا	فغن وارْحمنَا من قلبك القاسي
مالي وللناس كم يلحُوننا سفهـا	ديني لنفسي ودين الناسِ للناسِ

* * *

لبيك لبيك يا سرئي ونجوائي	لبيك لبيك يا قصدي ومعنائي
أدعوك بل أنت تدعوني إليك	فهل ناديت أم ناجيت إيائي
يا عين عين وجودي يا مدى همي	يا منطقي وعباراتي وإعيائي
يا كل كلي ويا سمعي ويا بصري	يا جملتي وتباعيضي وأجزائي
يا من به علقت روحي فقد تلفت	وجداً فصرتُ رهينًا تحتَ أهوائي
أبكي على شجني من فرقتي وطني	طوعًا ويسعدني بالنوحِ أعدائي

* * *

ما زلتُ أطفو في بحار الهوى	يرفعني الموجُ وأنحطُ

فتارةً يرفعني موجها … وتارةً أهوى وأنغطُ

حتى إذا صيرني في الهوى … إلى مكانٍ ما لهُ شطُّ

ناديتُ يا من لم أُبحْ بسرهِ … ولم أخنه في الهوى قطُّ

تقيك نفسي السوء من حاكم … ما كان هذا بيننا شرطُ

* * *

تباركت مشيئتك يا قصدي ومرادي … يا ذات وجودي وغاية رغبتي

يا حديثي وإيمائي ورمزي … يا جميعي وعنصري وأجزائي

* * *

تجاسرت فكاشفتـ … ـك لما غلب الصبرُ

وما أحسن في مثلـ … ـك أن يُنتهك السترُ

وان عنَّفني الناسُ … ففي وجهك لي عذرُ

كأن البدرَ محتاجٌ … الى وجهك يا بدرُ

* * *

وحُرمة الود الذي لم يكن … يطمع في إفساده الدهرُ

ما نالني عند هجوم البلا … بأسٌ ولا مسَّني الضرُ

ما قُدَّ لي عضوٌ ولا مفصلٌ … ما قُدَّ لي عضوٌ ولا مفصلٌ

* * *

نديمي غير منسوب … إلى شيء من الحيْفِ

دعاني ثم حياني … فعل الضيف بالضيف

فلما دارت الكأسُ ... دعا بالنطع والسيفِ
كذا من يشرب الراح ... مع التشرين في الصيفِ

* * *

أنا سر الحق ما الحق أنا ... بل أنا حق ففرق بيننا
أنا عين الله في الأشياء فهل ... ظاهر في الكون إلا عيننا
سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقبِ
ثم بدا لخلقه ظاهرًا ... في صورة الآكل الشاربِ
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجبِ

* * *

يا موضع الناظر من ناظري ... ويا مكان السرَّ من خاطري
يا جملة الكل التي كلها ... أحب من بعض ومن سائري

* * *

الحب ما دام مكتومًا على خطر ... وغاية الأمن أن تدنو من الحذرِ
وأطيب الحب ما تمَّ الحديث به ... كالنار لم تؤتْ نفعًا وهي في الحجر.

* * *

كيف السبيل؟!..

فنحن كدودِ القزِ يحصرنا الذى

صنعنا بدفع الحصرِ سجنًا لنا منا

فكم واقفٍ أردى وكم سائرٍ هدى

وكم حكمةٍ أبدى وكم مملقٍ أغنى

« الششترى »

كان من الأمراء وأولاد الأمراء، فصار من الفقراء وأولاد الفقراء.. هكذا كان يطلق على الشيخ على بن عبد الله النميرى الملقب بالششترى نسبة الى مسقط رأسه قرية "ششتر" بوادى "آش" بالأندلس ولعل السر وراء هذه العبارة التى كان يشار بها الى الششترى (٦١٠ - ٦٦٨هـ) هو نشأته فى أسرة عظيمة الثراء والجاه والنفوذ نظراً لانتسابها الى أمراء البلاد، ثم تحوله برغبته عن حياة الدعة والنعيم الى حياة الزهد والتصوف.

وقد بدأ الششترى الذى حفظ القرآن فى صغره ثم درس الفقه، حياته تاجرا يجوب البلاد شرقا وغربا وظل على هذا النحو حتى حضر حلقة ذكر لاتباع «أبى مدين» الصوفى المشهور، ولزم مجلس محيى الدين بن سراقة تلميذ «السهروردى» ، وأخذ عنه التصوف.

ولكن أكثر ما أثر فى الششترى وأحدث تحولا جذريا فى حياته ، وجعله يتحول الى التصوف بكل جوارحه وحواسه، ويصبح واحدا من أهم أئمة التصوف فى المغرب هو التقائه بأحد أعلام الصوفية الكبار فى عصر المعروف بـ «ابن سبعين».

ويصف الششترى معلمه ابن سبعين الذي التقي به بعد أن أصبح وزيراً وعالماً فى بعض قصائده بأنه «مغناطيس النفوس» و«اكسير الذات»، والحقيقة أن ظهور ابن سبعين فى محيط الششترى أحدث انقلابا فى حياته الروحية. فقد طبق ابن سبعين القاعدة الصوفية الخاصة بضرورة تخليص نفوس المريدين من الغرور والتكبر ، وهو ما يعرف عند الصوفية بـ «كسر حدة النفس».

وقد طاف الششترى بلادا كثيرة حتي وصل مصر واعتكف زمنا بالجامع الأزهر، وتعرف الى الشاذلية، وبلغ اعجابه بها، وإعجاب أصحابها به، الى حد أن بعض المؤرخين ينظرون اليه كأحد اتباع هذه الطريقة.

وقد ترك الششترى الذى عاش بمصر بقية حياته ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة أثناء مروره بمنطقة قريبة من دمياط، فنقله بعض مريديه الى دمياط ليدفن بها، ديوانا يضم عددا من القصائد والموشحات الى جانب بعض الرسائل الصوفية.

وشعر الششترى فى غاية العذوبة وتواشيحه فى غاية الحسن، وأزجاله فى غاية الملاحة، وترى فى سائر ما نظم من شعر الرموز الصوفية المتعارف عليها. انظر اليه كيف يرى حقيقة «الخمر» التى يتحدث عنها الصوفية:

تنبه قد بدت شمسُ العُقارِ ... وقد غلب الشعاعُ على النهارِ

سلافًا قد صفتْ قدمًا وراقت ... أدِرْها بالصغار وبالكبارِ

فما عُصرتْ وما جُعلتْ بدَنٍّ ... وما سُبكتْ زجاجتها بنارِ

* * *

ويروى أن الششترى قبل وصوله مصر مر بطرابلس حيث أعجب الناس بعلومه، وخاصة فى الفقه والسنة، وعرضوا عليه البقاء، وتولى القضاء، ولكنه رفض مؤثرا حياة التقشف والزهد، وعندما لاموه، ونعتوه بالجنون أنشد يقول:

رَضِىَ المُتيَّم فى الهوى بجنونه ... خلُّوه يفنى عمره بفُنونه

لا تعذلوه فليس ينفع عذلكم ... ليس السلُّو عن الهوى من دينه

قسمًا بمن ذُكرَ العقيق لأجله ... قسمَ المُحبِّ بحبه ويمينه

مالى سواكم غير أنى تائبٌ ... عن فاترات الحب أو تلوينه

مالى اذا هتف الحمام بأيكةٍ ... أبدًا أحنُّ لشجوه وشجونه

* * *

وإلى جانب شعره العمودى ، كان للششتري أزجاله المشهورة، والتى لا يزال يتغنى بها المنشدون فى حلقات الذكر، وخاصة فى المغرب العربى، ومن أشهر أزجاله تلك التى يستهلها قائلاً:

شـــويخ مـن أرض مكناس ... فـى وسط الأســواق يُغَنِّى

ايـش عـلـىَّ مـن الـنـاس ... وايـش عـلـى الـنـاس مـنـى

ويعتبر الششترى أول من استخدم الزجل فى التصوف. ولقد بلغت شهرة الششترى فى الأزجال الصوفية الى الدرجة التى جعلت ابن تيمية يطلق عليه «صاحب الأزجال» و،قد اعتمدت «الششترية» كطريقة أقرب الى التصوف السنى على اعتمادها علي السماع والموشحات التى كان يؤلفها الششترى.

أرى طالبًا منَّا الزيادة لا الحُسنى ... بفكر رمى سهمًا فعدَّى به عُدنا

وطَالِبُنا مطلوبُنا من وجودنا ... نغيب به عنًّا لدى الصعق إذ عَنَّا

تركنا حظوظًا من حضيض لُحوظنا ... من المقصد الأقصى الى المطلب الأسنى

وليم نلف كُنْه الكون الا توهمًا ... وليس بشيء ثابت هكذا ألفينا

فرفض السوى فرضٌ علينا لأننا ... بملة محو الشرك والشك قد دنَّا

ولكنه كيف السبيل لرفضه ... ورافضه المرفوض نحن وما كنَّا

* * *

فيا قائلاً بالوصل والوقفة التى ... حجب بها أسمعْ وأرعوى مثلما بنا

تقيدتَ بالأوهام لما تداخلت ... عليك ونور العقل أورثك السجنا

وهمتَ بأنوار فهمنا أصولها ... ومَنْبعها من أين كان فما همنَا

وقد تحجُبُ الأنوار للعبد مثلما ... تُقُيِّد من اظلام نفسٌ حوَت ضغْنا

وأى وصالٍ فى القضية يُدعَّى ... وأكمل مَنْ فى الناس لم يدعِ الأمْنا

* * *

ولو كان سرُّ الله يدرك هكذا ... لقال لنا الجمهور ها نحن ما خبنا

فكم دونه من فتنة وبليَّة ... وكم مهمة من قبل ذلك قد جُبنا

فلا تلتفتْ فى السير غيراً وكل ما ... سوى الله غير فاتخذ ذكره حصْنا

وكل مقام لا تقم فيه انَّه حجابٌ فجد السير واستنجد العونا

* * *

ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك فحُلْ عنها فعن مثلها حُلْنا

وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلبٌ فلا صورةٌ تُجلى ولا طُرفة تُجنى

وسِرْ نحو أعلام اليمين فأنها سبيل بها يمن فلا تترك اليمنا

أمامك هولٌ فاستمع لوصيتى عِقالٌ من العقل الذى منه قد تبنا

* * *

أباد الورى بالمشكلات وقبلهم بأوهامه قد أهلك الجنَّ والبنا

محجتنا قطعُ الحجا وهو حِجنَّا وحجُّنا تتلوه باء بها تُهنا

يبطِّننا عند الصعود لأنه يود لو أنا للصعيد قد أخلدنا

* * *

تلوح لنا الأطوارُ منه ثلاثةً كسراءٍ ومرئىٌ ورؤيةِ ما قلنا

ويُبْصرُ عبداً عند طور بقائه ويرجعُ مولى بالفنا وهو لا يفنى

فنحن كدود القزِّ يحصرنا الذى صنعنا بدفع الحصر سحنا لنا منا

فكم واقفٍ أرْدَى وكم سائرٍ هَدَّى وكم حكمةٍ أبدى وكم مُملقٍ أغنى

* * *

شكوى وجواب شكوى..

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء
وكيف ينال عهدى الظالمينا
اذا الإيمان ضاع فلا أمان
ولا دينا لمن لم يحيى دينه

« محمد اقبال »

عندما مات الفيسلوف الشاعر المسلم محمد اقبال، الذى وهب عقله وقلبه للمسلمين والبشر جميعا، فقد الاسلام والانسانية جمعاء عالما روحيا ظل -طيلة حياته- يحاول أن ينشىء الناس نشأة أخرى، ويسن لهم فى الحياة سنة أخرى.

لقد كان محمد اقبال الذى قال : كل كلام يصدر عن القلب يترك أثره فى القلوب، صوت الانسانية المعذبة فى كل مكان، المتحدث باسم معاناتها، المدافع عن عذاباتها، الحامل لهمومها، المناصر لقاضاياها ، والحصن الذى يقيها الهجمات التترية، التى تحاول هدم القيم،واقتلاع المبادىء،من جذورها، دون وازع من رحمة أو ضمير وأنظر اليه يقول:

المؤمنون على عناية ربهم يتوكلون
لا خوفَ يفزعهم ولا هم فى الحوادث يحزنون
لو مر أضعفهم على فرعون يجتز الرؤوسا
لأراك فى الافصاح ها روناً وفى الإيمان موسى

* * *

أنى رأيتُ الخوف فى الدنيا عدواً للعملْ
هو مطفىءٌ نور الرجاء وسالبٌ كنز الأملْ
يرمى الارادة بالتزلزلِ والعزيمةِ بالخورْ
ومن احتواهُ الخوفُ لا يجنى من الروضِ الثمرْ

* * *

المؤمن الوثاب تعصمه من الهول السكينةْ
والخائف الهياب يغرق وهو فى ظل السفينةْ
تلقاه عند شبابه هرماً قد انحطت هواهُ
وتعثرت قدمها قبل الخطو وارتعشت يداهُ
فى السلم قبل الحرب مسلوب الشجاعة حائرٌ

الصبر عنه نافر   والسلب منه طائرٌ

* * *

أعداؤكم يخشون سيـ   ـف يقينكم قبل السيوفْ

ومرامهم أن تسرعوا   بالخوف من قبل الحتوفُ

حتى تروا نظراتِهم   مثل الخناجرِ فى الصدورْ

وهناك يقتطفونكم   من أرضكم قطف الزهورْ

* * *

الحقد والكذب الصرا   ح وكل مكرٍ أو دهاءْ

واليأس والجبن المذ   ل وكل غشٍ والتواءْ

تلك الرذائل فى شعو   ب الأرضِ أبواب الفناءْ

لولا المخاوف ما سمعـ   ـنا باسمِها تحت السماءْ

* * *

الشرك يصنع من خيوط   الخوف أشراك البلاءْ

لولاه لم نسمع بكفـ   ـرٍ أو نفاقٍ أو رياءْ

المؤمنون لهم من المولى   أمان الأولياءْ

بلغوا الكمالَ فهم عن الـ   ـدنيا العريضةِ أغنياءْ

* * *

ثقةُ الكريم بنفسه   تعلوا به فوق الزمنْ

والحزن سمٌّ قاتل   لا تشربوا سمَّ الحزنْ

الموت والحرية الشما   ء والشرف المسكينْ

هى خير ما نحيا به   وهى الغنى للمؤمنين

أما المفضضُ والمذهـ   ـبُ والمفوف والنضيدْ

فلقد تركناها لعباد الحطام وللعبيد

* * *

كان الدكتور محمد اقبال الذى ولد فى سنة ١٢٩٧ هـ من أسرة «برهمية » الأصل ، اعتنقت الاسلام منذ ثلاثة قرون ، وهاجرت من «كشمير» الى «البنجاب» نموذجاً يحتذى به للمسلمين فى كل زمان ومكان، ولما لا وهو الذى درس الفلسفة فى «لاهور» على يد السير «توماس ارنولد»، ثم سافر الى كمبردج بانجلترا ، ثم «ميونيخ» بألمانيا ، لينل درجة الدكتوراة ، ورغم ذلك تمسك بدينه، ودافع عنه ، وجاهد فى سبيله ، مظهرا بعقلانية، وموضوعية، مزاياه.

وقد كافح اقبال طويلا ضد الاستعمار في كل مكان، ورفض أن يطلب الاستقلال للهند فقط وتحويل الدعوة الانسانية الى مجرد نداء اقليمى ضيق وعلت صرخته حتى بلغت مشارق الأرض ومغاربها بتحطيم أغلال الاستعمار الانجليزى، ليبقى الاسلام، ويبقى المسلمون فى اطارهم الدينى.

وقد كان اقبال رغم انفتاحه على الغرب من خلال دراسته ورحلاته، واحتكاكه بثقافات أخرى غير الثقافة الاسلامية، الا أنه كان ينزع الى الزهد والتصوف ولكن على طريقته الخاصة، التى تفرد بها -فى رأينا- دون سائر من نزعوا الى حياة الصوفية والزهد.

نعم اننا نرى ان اقبال كان شاعرا صوفيا روحانيا فى طليعة من تخصصوا فى «المحبة» و«العشق الألهى» ، بل ان ما نظمه اقبال من شعر دينى وربانى ، يندرج تحت لواء «الشعر الصوفى».

ودليلنا على ان اقبال الذى قال : «كل كلام قدسى المنبع فهو ابدا يتجه الى العلا شاعر صوفى رفيع المستوى، بلغ فى هذا المجال منتهي المنتهى ما جاء فى كتابه «ولله المشرق والمغرب» الذى قسمه أربعة أبواب، وأورد فى الباب الثالث شعراً صوفيا ممزوجا بفلسفة الحياه، واختار له عنوان «الخمر الباقية» مستخدما «الخمر» كرمز صوفى.

ولا يقف الأمر عند هذ الحد حيث يمكننا أن نرى بوضوح نزوع اقبال الى التصوف، في دواوين شعره التي نظمها باللغتين الأردية والفارسية» وخاصة ديوانه «أسرار الذاتية ورموز الذاتية» وباقى منظوماته التى ضمنها مناح كثيرة من فلسفته وأفكاره .

وقد حاول البعض أن ينسب الى اقبال -زورا وبهتانا - كلاما فيه بعض النقد للصوفية ، ويحاولون أن يربطوا بين ما جاء فى كتابه «جناح جبريل» من انكاره لبعض البدع كالاتجار بالأضرحة، ومقابر الأولياء، وبعض التجاوزات الخاصة بالموالد، والصوفية ككل.

وسوف ندعم كلامنا هنا بحديث طويل جرى مع اقبال حول الصوفية ونشر باللغة الأردية بمجلة «الطريق» الباكستانية في شهر اغسطس ١٣٣٥ هـ.

والجدير بالذكر هنا ان اقبال دافع باستماته عن الصوفية، وعدد مزاياها، وأسهب فى الحديث عما قدمته من أجل الخدمات للاسلام، واظهارهم محاسن الدين المحمدى.

وسوف أنقل هنا نص الحديث الذى جرت عملية ترجمته ونشر باللغة العربية ضمن بحث قيم ورد فى كتاب «الأعلام الخمسة للشعر الاسلامى» للعالمين الجليلين «محمد حسن الأعظمى»، و«الصاوى على شعلان، وحققه العالم الجليل الدكتور مصطفى غالب.

س: ماذا أفاد الاسلام من المتصوفة؟

ج: لقد قدم المتصوفة فى الهند أجل الخدمات الى الاسلام، وأظهروا محاسن الدين المحمدى، لا بالسيف ولا الحرب، بل بحسن سياستهم ومكارم أخلاقهم، وكان من أثر ذلك أن أسلم على أيديهم ستون مليونا من جملة المسلمين فى الهند، وهم سبعون مليونا (فى عام ١٩١٤) وكل المزايا الانسانية العالية التى تجلت فى الهند كانت بفضل تعليمهم ونشاطهم، فهم الذين علموا الانسان كيف يكون انسانا أولا، ثم علموه كيف يكون مسلما بعد ذلك.

س: هل أفادوا السياسة الاسلامية في الهند؟

وهل كان لهؤلاء المتصوفة أثر في سياسة الهند الاسلامية؟

ج: لم يكن من عملهم التدخل فى مشكلات السياسة، لأن رسالتهم تتعلق بتزكية النفس، واصلاح الباطن، وتهذيب النفس الأمارة، ولكنهم لم يتخلفوا عن أداء واجبهم حين انحرف بعض السلاطين، فقد قاموا بنصحهم وتوجيههم الى الطريق الأقوم بدون تردد ولا خوف.

س : ما هى تعليم التصوف من وجهة الشؤون الدنيوية؟

ج : فى نظرهم كما هو الحق، أن يحقق النجاح والتقدم للدين والدنيا فى قوت واحد، فالاسلام لا يسمح بالرهبانية والعزلة، واهمال الأهل والأولاد، والانقطاع للخلوة فى الصحارى والغابات.

(كيف تبني مسجدا للمسلمين ان تركت الأرض للمستعمرين)

والتصوف الاسلامى يرى ان الذي يعيش لنفسه فقط، فهو ينبوع جاف، لا ماء فيه ولا خير منه، وقد يسمح بالخلوة والتفرغ للعبادة والتوجه لله، لذوى المواهب الخاصة، ،من لهم قدم راسخة فى الروحانية وهم أقل من القليل، وعلى أية حال فإن ترك الدنيا والعزوف عن نعم الله فيها، تعد مخالفة للقانون الالهى، لأن الفطرة تقتضى نمو العمران وامتداد النسل البشرى.

س: منذ متى بدأت مواسم هذه الذكريات التى تطلق عليها كلمة الموالد فى البلاد العربية أو العرس فى شبه القارة الهندية الباكستانية؟

ج : نظرا الى أن الهنادك كانوا يحتفلون بأيام دينية فى مظاهر ومهرجانات تعودوها، فقد نقلت بعض هذه المظاهر فى شكل اسلامي ليأنس به الهنادك، الذين اعتنقوا الاسلام حديثا.

س : ما هى أهداف هذه الموالد؟

ج : هى ذكريات لمن تقام من أجلهم لابراز واظهار مزاياهم، وآثارهم الدينية والعلمية، ولهذا ينبغى استغلال هذه الذكريات لايضاح تاريخهم، والكشف عن

أمجادهم وأعمالهم، ولكن من المؤسف بأن بعض الناس لا يفطنون الى هذه المقاصد السامية فيجعلونها تسلية ويتخذونها لهوا ولعبا، فهي عبارة من الأسواق والملاهي والمناظر، وعرض السلع والمنتجات.

س : ولكن ما الذي يفيدنا من طائفة المتصوفة في هذا العصر المتميز بالحركة والجد والانتاج والعمل الدائب؟

ج : ان هؤلاء المتصوفة لهم حلقات رحبية، وأتباع عديدون، وهم يستطيعون ان يوجهوا أتباعهم ومريديهم نحو الحياة الفاضلة والمشاركة في كل الميادين العملية والمفيدة للمجتمع، وكثيرا ما كانوا مصدرا للنهضة واليقظة للأمة (نذكر مثلاً: في الحروب الصليبية بمصر، كيف قاد الامام أحمد البدوي مريديه، بعد أن دربهم ونظمهم، وشكل منهم جيشا يجمع بين الايمان والعمل، واتجه بهم الى معسكرات الأسرى التي تضم المئات من جنود الشعب المصري فحررهم وفك أسرهم، وشارك بهم وببقية مريديه في الموقعة، حتى جاء نصر الله، وعاد الى صومعته معلما وعابدا، وننقل الى عصرنا القريب فنذكر الامام السنوسي الأكبر، وكيف وقف بجيوشه ضد غزاة الشمال الافريقي نحو عشرين عاما، حتى اذا مات خلفه الامام البطل الشيخ عمر المختار، ونذكر الزعيم الصوفي الأمير عبدالكريم الخطابي، وهذه مواقفه الجليلة ضد جيوش الاحتلال، لا تزال ترن في أذهان الناس (أنظر للتفصيل مجلة الشبان المسلمين القاهرية).

س : ما قولك في كرامات الأولياء؟

ج : أعتقد في كرامات الأولياء، فإن النفوس التي وهبها الله قلوبا وأدمغة خالصة، ممن بلغوا الكمال في تزكية النفس، وعلى تعبير البعض بأنهم يستطيعون أن يرجعوا السهم الى القوس بعد انطلاقه، والماء الى الينبوع بعد فيضانه.

س : أترى من المستحسن زيارة القبور، أو ترى غير ذلك؟

ج : اذا كان هدف الزيارة طلب الحاجات من اصحابها، كما تطلب من الله عز وجل، فاني اخالف هذا كل المخالفة، واعتبر ذلك اثما وجرما كبيرا فاذا كان الهدف هو العبرة

وتذكر الموت، ،الدعاء لهم، فلا بأس بذلك، بل هو مطلوب، وأري فوق ذلك أن فى زيارة هذا المواطن مما يتحقق به تزكية الباطن.

س : هل نحتاج الى مرشدين أو لا؟

ج : الانسان يحتاج الى مرشد الذي يوجهه الى الطريق الأقوم، وصاحب القلب النقى يستفيد من هداية المرشد، ممن لهم روح كبيرة، وفيهم حرارة وألم، وكل مريد ترتفع أخالقه وتحسن سيرته وسلوكه، من صحبة المرشدين شريطة أن لا يكونوا تجارا ولا محترفين.

س: لم نجد فى الوقت الحاضر أمثال أولئك المرشدين؟

ج : مرد هذا الى أن مجتمعنا الحاضر قد تعري من مزايا تلك الأزمنة، وأذواقها وعلى سبيل الايضاح نقول: إننا نرى العلماء والمخترعين والعباقرة تمتلىء بهم أوربا وفيما وراء البحار، بينما لا نجد لدينا الا القليل النادر ، وسبب هذا أن المجتمع هناك يقدر الجهود العلمية والفنية ويفسح الجمال أمام ذوى الخبرة ليمارسوا استخدام قدزاتهم فيما يرفع من شؤن أممهم بالتشجيع والتقدير ، بينما لا يجد الموهوبون هنا غير اطفاء نور الموهبة، وتعويق سيرهم عدا الحالات، فمثلا بوذا الذى ولد فى بيت ملك، وشاهد المجتمع من حلوه نشوان بالرفاهية والنعمة، أو مبتلي بالفاقة والعدم، فأحس بذلك وظن أن كل آلام الانسانية، هي آلامه، فاضطربت روحه وترك الملك والدولة، ووقف حياته للاصلاح، والمثل الأعلي في حياة العرب أنهم كانوا أبدا في حروب، ووأد بنات، وكل عيوب الدنيا كانت لديهم فجاء شخص من رب العزة رسولا الذي هو أكبر نموذج ومثال للرحمة، وكان العرب يشعلون الحرب لأسباب تافهة وتستمر الحرب إلي عشرات السنين، وبدل آله واحد كانوا يعبدون الهة عديدة من صنع أيديهم، ويقدسون أشخاصا ويفتخرون بالشراب والمجون، ولايعرفون للعدل والفضل قانونا، ينظم معيشتهم لأجل هذا بعث النبي الذي كان رحمة للعالمين فجعل هذه المنطقة العربية منطقة يعتز بها مسلمو العالم أجمع، ويبذلون أرواحهم فداء لمكة المكرمة والمدينة المنورة.

هكذا كان العالم الروحي المسلم الفيلسوف محمد إقبال الشاعر الصوفي الذي عبر عن نزعته إلي التصوف بقصائد رائعة لم يزل يشدو وبها العالم الإسلامي، ويتغني بها اولئك الذين قد تعلقوا بالحب الالهي، وهاموا به، وبلغوا فيه منتهي المنتهي.

وسوف نقدم هنا أعظم أشعار اقبال، وهما قصيدتان شهيرتان احداهما بعنوان «شكوي» والأخري «جواب شكوى». وفي القصيدة الأولي يصور اشجانه والآمه ويتضرع اقبال إلي الله يسأله عمن سبب ما آل اليه المسلمون من ضعف وفرقة وتآخر بعدما بلغوا في عصور مضت أوج عظمتهم وتقدمهم.

وفي القصيدة الثانية يتخيل اقبال صوتا سماويا يدوي بصيحة الحق جوابا لهذه الشكوي:

«شكوى»:

شكواي أم نجواي في هذا الدجي	ونجومُ ليلي حسدي أم عودي
أمسيتُ في الماضي أعيشُ كأنما	قطعَ الزمانُ طريق أمسي عن غدي
والطير صادحةٌ علي أفنانِها	تبكي الربي بأنينِها المتجددِ
قد طالَ تسهيدي وطالَ نشيدُها	ومدامعي كالطلِ في الغصنِ الندي
فالي متي صمتي كأني زهرةٌ	خرساء لم ترزقْ براعةَ منشدِ

* * *

قيثارتي ملئت بأناتِ الجوي	لابد للمكبوت من فيضانِ
صعدت إلي شفتي بلابل مهجتي	ليبينَ عنها منطقي ولسانِي
أن ماتعديت القناعةَ والرضا	لكنما هي قصة الأشجانِ
أشكو وفي فمي التراب وانما	أشكو مصاب الدينِ للديانِ
يشكو لك اللهم قلبٌ لم يعشْ	الا لحمد علاكَ في الأكوانِ

* * *

قد كان هذا الكون قبل وجودنا   روضا وأزهارا بغير شميم
والورد في الأكمام مجهول الشذي   لا يرتجي وردٌ بغير نسيم
بل كانت الأيام قبل وجودنا   ليلاً لظالمها وللمظلوم
لما أطل محمدٌ زكّتْ الربي   واخضر في البستان كل هشم
وأذاعت الفردوس مكنون الذي   فإذا الوري في نضرةٍ ونعيم

* * *

مَنْ قام يهتف باسم ذاتك قبلنا   من كان يدعو الواحدَ القهارا
عبدوا تماثيل الصخورِ وقدسوا   من دونك الأحجارَ والأشجارا
عبدوا الكواكبَ والنجومَ جهالةً   لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلن التوحيد داعٍ قبلنا   وهدي الشعوب إليك والأنظارا
كنا نقدم للسيوفِ صدورَنَا   لم نخش يوما غاشماً جبارا

* * *

قد كان في اليونان فلسفةٌ وفي الـ   ـرومان مدرسة وكان الملكُ في ساسانِ
لم تغن عنهم قوةٌ أو ثروة   في المال أو في العالم والعرفانِ
ويكل أرضٍ سامري ماكرٌ   يكفي اليهودَ مؤونةُ الشيطانِ
والحكمة الأولي جرت وثنيةً   في الصينِ أو في الهند أو توران
نحن الذين بنورِ وحيكَ أوضحوا   نهجَ الهدي ومعالمَ الايمانِ

* * *

مَنْ ذا الذي رفع السيوفَ ليرفعَ اسمـ   ـكَ فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالا في الجبال وربما   سرنا علي موج البحار بحارا
بمعابد الأفرنج كان أذانُنَا   قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس أفريقيا ولاصحراؤها   سجداتِنا والأرض تقذف نارا

وكـأن ظلَّ السيفِ ظلَّ حديقةٍ خضراء تنبت حولنا الأزهارا

* * *

لم تخش طاغوتا يحاربنا ولو نصب المنايا حولنا أسوارا

ندعو جهارا لا اله سوي الذي صنع الوجودَ وقدر الأقدارا

ورؤوسنا يارب فوق أكفنَا نرجو ثوابك مغنمًا وجوارا

كنا نري الأصنام من ذهبٍ فنهدمها ونهدم فوقَها الكفارا

لو كان غير المسلمين لحازَها كنزاً وصاغ الحلي والدينارا

* * *

كم زلزل الصخر الأشم فما وهي من بأسنا عزم ولا ايمانُ

لو أن أساد العرين تفزعت لم يلقْ غير ثباتنا الميدانُ

وكأن نيرانَ المدافعِ في صدور المؤمنين الروح والريحانُ

توحيدك الأعلي جعلنا نقشه نوراً تضئ بصبحه الأزمانُ

فغدت صدور المؤمنين مصاحفًا في الكون مسطوراً بها القرآنُ

* * *

مَنْ غيرنا هدم التماثيل التي كانت تقدسها جهالات الوري؟

حتي هوت صور المعابد سجدا لجلال من خلق الوجود صورا

ومَنْ الأهلي حملوا بعزم أكفهم باب المدينة يوم غزوة خيبرا؟

أمن رمي نارَ المجوسِ فأطفئت وأبانَ وجه الحقِ أبلج نيرا؟

ومن الذي بذلَ الحياةَ رخيصةً ورأي رضاك أعز شيء فاشتري؟

* * *

نحن الذين استيقظت بأذانهم | دنيا الخليقة من تهاويل الكري
نحن الذي إذا دعوا لصلاتهم | والحرب تسقي الأرض جاما أحمرا
جعلوا الوجوه إلي الحجاز وكبروا | في مسمع الروح الأمين فكبرا
محمود مثل أياز[1] قام كلاهما | لك بالخشوع مصلياً مستغفرا
العبد والمولي علي قدم التقي | سجداً لوجهك خاشعين علي الثري

* * *

بلغتْ نهايةَ كل أرض خيلُنَا | وكأن أبحرها رمال البيدِ
في محفل الأكوان كان هلالُنا | بالنصر أوضحَ من هلالِ العيدِ
في كل موقعةٍ رفعنا رايةً | للمجدِ تعلن آيةَ التوحيدِ
أم البرايا لم تكن من قبلنا | إلا عبيداً في أسارِ عبيدِ
بلغت بنا الأجيال حرياتها | من بعد أصفادٍ وذلِ قيودِ

* * *

رحماك رب هل بغير جباهنا | عرف السجودَ ببيتُك المعمورِ؟
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفًا | يحوي جلالَ كتابَك المسطورِ
إنْ لم يكن هذا وفاء صادقاً | فالخلق في الدنيا بغير شعورِ
ملأ الشعوب جناتها وعصاتها | من ملحد عاتٍ ومن مغرورِ
فاذا السحاب جري سقاهم غيثةً | واختصنا بصواعقِ التدميرِ

* * *

قد هبت الأصنامُ من بعد البلي | واستيقظت من قبل نفخِ الصورِ

---

(١) السلطان محمود الغزنوي واياز خادمه.

والكعبة العليا تواري أهلَها — فكأنهم موتي لغير نشورِ
وقوافلُ الصحراء ضل حداتُها — وغدتْ منازلُها طلالَ قبورِ
أنا ماحسدت الكافرينَ وقد غدوا — في أنعمٍ ومواكبٍ وقصورِ
بل محنتي ألا أري في أمتي — عملاً تقدمُه صداق الحورِ

* * *

لك في البريةِ حكمةٌ ومشيئةٌ — أعيتْ مذاهبها أولي الألباب
إنْ شئت أجريت الصحاري أنهراً — أو شئت فالأنهارُ موجِ سرابِ
ماذا دهي الاسلامُ في أبنائه — حتي أنطووا في محنة وعذابِ
فثراؤُهم فقرُ ودولةُ مجدِهِم — في الأرضِ نهبُ ثعالبٍ وذئابِ
عاقبتنا عدلاً فهب لعدونا — عن ذنبه في الدهرِ يومَ عقابِ

* * *

عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم — للموتِ بين الذلِ والأملاقِ
الدينُ يحيا في سعادةِ أهلهِ — والكأسُ لاتبقي بغير الساقي
أين الذين بنار حبك أرسلوا الـ — ـأنوارَ بين محافل العشاقِ
سكبوا الليالي في أنينِ دموعِهم — وتوضأوا بمدامعَ الأشواقِ
والشمس كانت من ضياء وجوهِهِم — تهدي الصباحَ طلائعُ الأشواقِ

* * *

كيف انطوت أيامهم وهم الألي — نشروا الهدي وعلوا مكان الفرقدِ
هجروا الديارَ فأين أزمع ركبهم — من يهتدي للقومِ أو من يقتدي
ياقلبُ حسبك لن تلمّ بطيفهم — الا علي مصباحِ وجهِ محمدِ

فـــازوا من الـدنيـــا بمجـــد خـــالدٍ ولهـم خلـودُ الفـــوزِ يـومَ الموعـــدِ
يارب ألـهـــمنا الرشـــادَ فـــمــا لـنا في الكـونِ غـيــرك من ولـيٍ مـرشـدِ

* * *

مـــازال قـــيس والغـــرام كـــعـــهـدِه وربوع لـيلي فـي ربيع جـــمـــالـهـــا
وهضـــاب نجـد في مـراعيـهـا المهـــا وظبـاؤها الخـفـرات مـلءُ جبـالِهـا
والعـشـق فـيــاضٌ وأمـــة أحـــمـــد يتـــحـــفـز التـــاريخُ لا سـتـقبـالِهـا
لو حـــاولت فــوق الســمـــاء مكـانة رفت علـي شـمـس الضـحـي بهـلالـهـا
مـــابالـهـــا تلقـي الجـــدود عـــواثرا وتصـــدهـا الأيامُ عـن آمـــالِهـــا

* * *

هجـــر الحـبـيـب رمي الأحـبـة بالنوي وأصـــابـهم بتـــصـــرمِ الآمـــالِ
لم يبقَ في الأرواح غـيـــر بقـيـــةٍ رُحـــمـــاكَ يامـــرآةَ كلِ جـــمـــالِ
لو قـــد مللنا العـــشقَ كـــان سَـبـيلُنا أن نســتـكينَ إلـي هوي وضــــلالِ
أو نصنع الأصنامَ ثـم نبـيـــعَــهَـــا حـــاشـــا الموحـــد أن يُذَلَّ لمـالِ
أيام سـليـــمـــان بنـا مـــوصـــولةٌ وتـــقـــي أدريـــس فـــي أذانِ بـــلالِ

* * *

يا طـيب عـــهـــدٍ كنـت فـيـــه منارنا فـــبـــعـــثـت نورَ الحقِ مـن فـــارانِ
وأســرت فـيـــه العـــاشقين بـلمحـــةٍ وسـقـــيـتـهـم راحـــا بغـيـــر دنانِ
أحـــرقت فـيـــه قلوبَهم بتـوقـــد الإ يمـان لابتـــلـهـبِ النـيــــــرانِ
لـم نـبقْ نحن ولا القـلوب كـــأنهـــا لم تـتـحـظْ من نارِ الهـــوي بدخـــانِ
ان لـم يـنر وجــه الحـبـيـب بوصـلِه فـــمكان حـــزنِ القلـبِ كلَّ مـكانِ

* * *

يافرحة الأيام حين نري بها — روضَ التجلي وارفَ الأغصانِ
ويعود محفلنا بحسنك مسفراً — كالصبحِ في اشراقهِ الفينانِ
قد هاج حزني أن أري أعداءَنا — بين الطلا والظل والألحانِ
ونعالج الأنفاسَ نحن ونصطلي — في الفقرِ حين القوم في بستانِ
أشرقْ بنورِكَ وأبعث البرق القدي — سم بومضة لفراشك الظمآنِ

* * *

أشواقنا نحو الحجاز تطلعتْ — كحنينِ مغتربٍ إلي الأوطانِ
إن الطيورَ وإنْ قصَصتَ جناحَها — تسمو بفطرتِها إلي الطيرانِ
قيثارتي مكبوتةٌ ونشيدُهَا — قد ملَ من صمتٍ ومن كتمانِ
واللحنُ في الأوتارِ يرجو عازفًا — ليبوحَ من أسرارِه بمعانِ
والطورُ يرتقبُ التجلي صارخًا — بهوي المشوقِ ولهفةِ الحيرانِ
أكبادُنا احترقت بأنات الجوي — ودماؤنا نهر الدموعِ القاني
والعطرُ فاض من الخمائلِ والربي — وكأنه شكوي بغيرِ لسانِ
أو ليس من هول القيامة أن يكو — ن الزهر نمامًا علي البستانِ
النمل لايخشي سليمانا إذا — حرست قراه عنايةُ الرحمن
أرشد براهمة الهنود ليرفعوا الإ — سلام فوق هياكل الأوثانِ

* * *

ما بال أغصان الصنوبر قد نأت — عنما قماريها بكل مكانِ
وتعرت الأشجار من حللِ الربي — وطيورُها فرت إلي الوديانِ
يارب الا بلبلاً لم ينتظرْ — وحَي الربيع ولاصبا نيسانِ
ألحانه بحر جري متلاطمًا — فكأنه الحاكي عن الطوفانِ

ياليت قــومي يســـمــعـــون شكـايةً ... هي في ضـمـيـري صرخُـة الوجـدانِ

* * *

ان الجـــواهـر حـــيـــرت مـــرآة هـــ ... ـــذا القـلبِ فـهــو علي شــفـا بركـانِ

أســـمــعــهـمــوا يارب مـا ألـهـمـتني ... وأعـــــدْ اليـــــهـمْ يـقـظةَ الإيمانِ

وأذقــهـم الخــمــرَ القـديمة إنهـــا ... عينُ الـيـــقـين وكـــوثُر الرضـــوانِ

أنا أعـــجـمي الدن لكـن خـمــرتي ... صنع الحـجـاز وكـرمـهـا الـفـينانِ

ان كـــان لي نـغـم الهـنود ولحـنهـم ... لكـن هذا الـصـــوت من عـــدنانِ

* * *

«جواب شكوي»:

كـــلامُ الـروح للأرواح يـســـري ... وتـدركـــه الـقـلـوبُ بـلا عـنـاء

هتـــفت بـه فـطـارَ بـلا جـنـاحٍ ... وشقَ أنينُـه صـــدرَ الفـــضـــاء

ومـــعـــدنـه ترابي ولـكـنْ ... جـــرت في لـفظهِ لـغـةَ الـســمـاء

لقــد فـاضـت دمـوع العـشقِ مـني ... حـــديـثًـــا كـــان علـوي النـداء

فـــحلق فـي ربي الأفـــلاكِ حـــتي ... أهـاجَ الـعـــالـمَ الأعلي بـكـائي

* * *

تحـــاورت النجُـــوم وقلن صـــوت ... بقـرب العـرشِ مـوصـولَ الدعـاء

وجـــاوبت المجـــرة علي طيـــفًـــا ... ســـري بين الكواكـب في خـــفـــاء

وقـــال الـبـــدرُ هـذا قلـبٌ شـــاكٍ ... يـواصل شـــدوه عـنـد المســـاء

ولـم يعـرفْ ســوي رضـوان صـوتي ... ومـــا أحـــراه عندي بالـوفـــاء

ألـم أكُ قـــبـل في جـنـاتِ عـــدنٍ ... فـــأخـــرجني إلـي حين قـــضـــائي

* * *

وقيلَ هو ابنُ ادمَ في غرورٍ | تجاوز قدرُه دون ارعواءِ
لقد سجدتْ ملائكةٌ كرام | لهذا الخلق من طينٍ وماءِ
يظن العلمُ في كيفٍ وكمٍ | وسرُ العجزِ عنه في انطواءِ
وملء كؤوسِه دمعٌ وشكوي | وفي أنغامِه صوتُ الرجاء
فيا هذا لقد أبلغت شيئًا | وان أكثرت فيه من المراءِ

* * *

عطايانا سحائب مرسلات | ولكن ماوجدنا السائلينَا
وكل طريقنا نورٌ ونورٌ | ولكن ما رأينا السالكينَا
ولم نجدْ الجواهرَ قابلات | ضياء الوحي والنور المبينَا
وكان تراب آدم غير هذا | وان يكَ أصله ماء وطينَا
ولو صدقوا وما في الأرض نهر | لأجرينا السماء لهم عيونَا

* * *

وأخضعنا لملكهم الثريا | وشيدنا النجومَ لهم حصونا
ولكن ألحدوا في خير دينٍ | بني في الشمسِ ملك الأولينَا
تراثُ محمدٍ قد أهملوه | فعاشوا في الخلائقِ مهملينَا
تولي هادمو الأصنام قدما | فعاد لهِا أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيم لكنْ | أري أمثال آزرَ في البنينَا

* * *

وفي أسلافكم كانت مزايا | بكل فمٍ لذكراها نشيدُ
تضوع شقائق الصحراء عطرًا | برياهًا وتبتسم الورودُ...

فهل بقيت محاسنهم لديكم فيجعلُ في دلالكُم الصدودُ
لقد هاموا بخالقهم فناء فلم يكتب لغيرهم الخلودُ
وكوثر أحمد منكم قريبٌ ولكن شوقكم عنه بعيدُ

* * *

وكم لاحَ الصباحُ سناً وبشري وأذنت القماري والطيورُ
وكبرَتْ الخمائل في رباها مصلية فجاوبها الغديرُ
ونوم صباحكم أبداً ثقيلُ كأنَ الصبحَ لم يدركه نورُ
وأضحي الصوم في رمضان قيداً فليس لكم به عزم صبورُ
تمدن عصُركم جمع المزايا وليس بغائبٍ الا الضمير

* * *

لقد ذهب الوفُاء فلا وفاءَ وكيف ينالُ عهدي الظالمينَا
إذا الايمانُ ضاعَ فلا أمانَ ولا دنيا لمن لم يحيي دينَا
ومن رضي الحياةَ بغير دينٍ فقد جعلَ الفناءَ لها قرينَا
وفي التوحيد للهمم اتحادٌ ولن تبنوا العلا متفرقينَا
تساندت الكواكبُ فاستقرتْ ولولا الجاذبية ما بقينَ

* * *

غدوتم في الديارِ بلا ديارَ وأنتم كالطيورِ بلا وكورِ
وكل صواعق الدنيا سهام لبيد ركم وأنتم في غرورِ
أهذا الفقر في علمٍ ومالٍ وأنتم في القطيعةِ والنفورِ
وبيع مقابر الأجدادِ أضحي لدي الأحفادِ مدعاة الظهورِ

سيعجب تاجرو الأصنام قدمًا ... إذا سمعوا بتجار القبورِ

* * *

مَنْ المتقدمون إلي المعالي ... علي نهج الهدايةِ والصوابِ

ومَنْ جبهاتُهم أنوارُ بيتي ... وفي أخلاقِهمْ يُتْلَي كتابِي

أمَا كانوا جدودُكُمُ الأوالي ... بناةَ المجدِ والفنِ العجابِ

وليسَ لكم من الماضي تراثٌ ... سوي شكوي اللغوب والاكتئابِ

ومن يكُ يومه في العيش يأسًا ... فما غده سوي يومِ العذابِ

* * *

أتشكو أن تري الأقوامَ فازوا ... بمجدٍ لايراه النائمونَا

مشوا بهدي أوائِلكُمْ وجدوا ... وضيعتم تراثَ الأولينَا

أيحرَمُ عاملٌ ورد المعالي ... ويسعدُ بالرقي الخاملونَا

ألَيسَ من العدالةِ أنَ أرضي ... يكون حصادُها للزارعينَا

تجلي النورٌ فوق الطورِ باق ... فهل بقي الكليمُ بطورِ سينا؟

* * *

ألم يبعث لأمتكم نبي ... يوحدكم علي نهج الوئامِ

ومصحفكم وقبلتكم جميعًا ... منار للأخوة والسلامِ

وفوق الكل رحمنٌ رحيمُ ... الهٌ واحدٌ ربُ الأنامِ

فما لنهار الفتكم تولي ... وأمسيتم حياري في الظلامَ

وحسن اللؤلؤُ المنكونُ رهنُ ... بصوغِ العقدِ في حسنِ النظامَ

* * *

وكيف تغيرتْ بكُم الليالي | وكيف تفرقتْ بكمُ الأماني
تركتم دينَ أحمد ثم عُدتمْ | ضحايا للهوى أو للهوانِ
رقي الشعب قد أضحي لديكم | تقرره صلاحيةُ الزمان
وكيف تقاسُ أوهامٌ ولغوٌ | بحكمة منزِل السبع المثانيَ
أري ناراً قد انقلبت رماداً | سوي ظلِ مريضٍ من دخانِ

* * *

أري الفقراء عباداً تقاة | قياما في المساجدِ راكعينَا
هم الأبرار في صومٍ وفطرٍ | وبالأسحارِهم يستغفرونَا
وليس لكم سوي الفقراءِ سترٌ | يواري عن عيوبكم العيونَا
أضلت أغنياءكم الملاهي | فهم في ريبِهم يترددونَا
وأهلُ الفقرِ مازالوا كنوزاً | لدينِ اللهِ رب العالمين

* * *

أري التفكَير أدركَه خمولٌ | ولم تبقْ العزائمُ في اشتعالِ
وأصبح وعظُكم من غير سحرٍ | ولانورِ يُطلُ من المقالِ
وعند الناسِ فلسفةٌ وفكر | ولكن أين تلقين (الغزالي)
وجلجلة الآذان بكلِ أرضٍ | ولكن أين صوت من بلالِ
منائركم علت في كل حي | ومسجدكم من العباد خالي

* * *

فأين أئمة وجنود صدق | تهاب شباةَ عزمِهم الحرابُ
إذا صنعوا فصنعهم المعالي | وإن قالوا فقولهم الصوابُ

مرادهم الاله فلا رياءَ   ونهجهم اليقين فلا ارتيابُ

لأمتهم وللأوطان عاشوا   فليس لهم إلي الدنيا طلاب

كمثل الكأس تبصرها دهاقا   وليس لأجلِها صُنِعَ الشرابُ

* * *

جهاد المؤمنين لهم حياةٌ   ألا أن الحياةَ هي الجهادُ

عقائدهم سواعد ناطقات   وبالأعمالِ يثبت الاعتقادُ

وخوفُ الموتِ للأحياء قبرٌ   وخوف الله للأحرارِ زادُ

أري ميراثَهم أضحي لديكُم   مضاعًا حيث قد ضاعَ الرشادُ

وليس لوارثٍ في الخيرِ حظٌ   إذا لم يحفَظ الأرثَ اتّحادُ

* * *

لأي مآثر القوم انتسبتم؟   لتكتسبوا فخار المسلمينَا

فأين مقامُ ذي النورينِ منكم   ودولة عزة دنيا ودينَا

وفقرٌ علي الأواب هلا   ربحتُم فيه كنزَ الفاتحينَا

أقمتم في الذنوبِ وفي الخطايا   وتغتابون حتي الصالحينَا

وهم ستروا عيوب الخلق فضلا   وان كانوا أبر المتقينَا

* * *

أريكة قيصر وسرير كسري   قد احتميا بملكهم العميمِ

وأنتم تطمحون إلي الثريا   فلا عزم ولا قلب سليمِ

تضيعون الأخاءَ وهم أقاموا   صروحَ أخائهم فوقَ النجومِ

طلبتم زهرةَ الدنيا وعــا   بلا زهر يضوع ولا شميمِ

وكان لديهم البستان محضًا ... وهم أصحابُ جناتِ النعيمِ

* * *

يعيد الكون قصتهم حديثًا ... وينشئ من حديثهم الفنونا

فكم نزحوا عن الأفكارِ شوقًا ... إلي التحليقِ فوقَ العالمينا

وبأس شبابكم أدمي خطاهم ... فظنوا فيه بالدين الظنونَا

هي المدينةُ الحمقاء ألقت ... بهم حولَ المذاهبِ حائرينَا

لقد صنعت لهم صنم الملاهي ... لتحجبَ عنهم الحرَمَ الأمينَا

* * *

لقد سئمَ الهوي في البيدِ قيسٌ ... ومل من الشكايةِ والعذابِ

يحاول أن يباحَ العشقُ حتي ... يري ليلاه وهي بلاحجابِ

يريد سفور وجه الحسنِ لما ... رأي وجهَ وجهَ الغرام بلا نقابِ

فهذا العهدُ أحرقَ كل غرسِ ... من الماضي وأغلقَ كلَ بابِ

لقد أفنت صواعقه المغاني ... وعاثت في الجبال وفي الهضابِ

* * *

هي النارُ الجديدة ليس يلقي ... لها حطبٌ سوي المجد القديمِ

خذوا ايمان إبراهيم تنبت ... لكم في النارِ روضات النعيمِ

ويذكو من دم الشهداء وردٌ ... سني العطر قد سي النسيمِ

ويلمعُ في سماءِ الكونِ لونٌ ... من العناب مخضوب الأديمِ

فلا تفزع إذا المرجانُ أضحي ... عقودًا للبراعم والكرومِ

* * *

فكم زالتْ رياضٌ من رباها ... وكم بادتْ نخيلٌ في البوادي

ولكن نخلةَ الإسلام تنمو — على مرِ العواصف والعوادي
ومجدك في حمي الإسلام باقٍ — بقاء الشمسِ والسبعِ الشدادِ
وأنك يوسفٌ في أي مصرٍ — يسري كنعانه كلَ البلادِ
تسير بك القوافلُ مسرعاتٍ — بلا جرسٍ ولا ترجيع حادي

* * *

ضياؤُك مشرق في كل أرضٍ — لأنك غير محدود المكانِ
بغت أمم التتار فأدركتها — من الايمانِ عاقبة الأمانِ
وأصبح عابد والأصنامِ قدما — حماةَ الحجر والركن اليمانِ
فلا تجزع فهذا العصر ليل — وأنت النجم يشرق كل آنِ
ولاتخش العواصفَ فيه وانهضْ — بشعلتك المضيئةِ في الزمانِ

* * *

أعد من مشرق التوحيد نوراً — يتمُ به الجهادُ العالمينا
وأنت العطرُ في روضِ المعالي — فكيف تعيشُ محتبساً دفينا
وأنت نسيمُه فاحملْ شذاه — ولاتحمل غبارَ الخاملينا
وأرسل شعلةَ الإيمانِ شمسًا — وضع من ذروة جبلاً حصينا
وكُنْ في قمةِ الطوفان موجًا — ومزنا يحطرُ الغيثَ الهتونا

* * *

فباسم محمد شمس البرايا — أُقيمتْ خيمة الفلكِ المنيرِ
تلألأ في الرياض وفي الصحاري — وفوق الموجِ والسيلِ المغيرِ
ونبضُ الكونِ منه مستمدٌ — حرارتُه على مرِ العصورِ
ومن مراكش يغزو صداه — ربوع الصين بالصوت الجهيرِ
وما مشكاة هذا النور الا — ضمير المسلم الحر الغيورِ

* * *

ورفع الذكر للمختار رفع لقدرك نحو غايات الكمال
فكن إنسان عين الكون وأشهدْ مقامك عالياً فوق المعالي
بخنجر عزمك الوثاب لاحتْ على الأعلام أنوار الهلال
نداؤك في العناصر مستجاب إذا دوي بصوت من بلال
وعقلك في الخطوب أجلَ درعٍ وعشْقُكَ خير سيفٍ للنضال

* * *

خلافةَ هذه الأرض استقرتْ بمجدك وهو للدنيا سماءُ
وفي تكبيرك القدسي يبدو صغيراً كل ماضمَ الفضاءُ
فيا من هب للإسلام يدعو وأيقظَ صدق غيرته الوفاءُ
سترفع قدرك الأقدارُ حتي تشاهد أن ساعدكَ القضاءُ
وقيل لك احتكم دنيا وأخري وشأنُكَ والخلود كما تشاءُ

* * *

كل المنى..

أنرتَ الهدى للمهتدين ولم يكنْ
من النورِ فى أيديهم عشر معشارى
فنلنى بعفوٍ منكَ أحيى بقربهِ
وغثَّ بيسرٍ منك فقرى واعسارى

« ذا النون المصرى »

من بين أشهر رجال الصوفية في الإسلام أبو الفائض ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصرى، ولد بأخميم من أعماق صعيد مصر، ويبدو من أيامه أنه كان نوبيا وان ذا النون كان عبدا ثم أعتق . وقد قيل ان ذا النون اعتاد أن يطوف بين الآثار المصرية القديمة يدرس رموزها ويحاول حلها، وقد درس أيضاً بعض علوم الطب والكيمياء والسحر ويقال إن سعدون الصوفى المصرى كان معلمه ورائده الروحى.

وقد سافر ذو النون إلى مكة ودمشق وزار بعض النساك المقيمين الى الجنوب من أنطاكيا وفى أثناء هذه الأسفار توصل ذو النون الي التضلع فى التنسك وكبح جماح النفس.

من بين ما روى عن ذي النون أنه كان ذات مرة مبحرا مع تلامذته في قارب بالنيل فاقترب منهم قارب آخر به رهط من المعيدين احنقت تصرفاتهم أتباع ذى النون فطلبوا إليه أن يدعو الله ضارعاً اليه إغراق أهل القارب ، لكنه اتجه الى ربه قائلاً «يارب لتنعم على هؤلاء القوم السعداء في هذه الحياة الدنيا بعيشة مثلها هنيئة في الحياة الأخرى»، الأمر الذى اثار دهشة أتباعه.

ثم اقترب القارب الآخر منهم وأبصر من فيه ذا النون فخروا بكيا في توبه لله.

وعند ذلك قال ذو النون لصحبه «ان المعيشة الرغدة فى الحياة الأخرى هى ثمرة التوبة فى هذه الحياة، وها أنتم وهم الآن راضون دون حاجة إلى إنزال ضرر بأحد»، وروى أيضاً أن ذا النون كان مسافرا ذات يوم من القدس إلى مصر فالتقى بامرأة عجوز تحمل عكازا وترتدى جبة صوفية فسألها من أين جاءت فأجابته «من عند الله» فقال «وأين أنت ذاهبة» فأجابت «إلى الله» فأخرج عند ذلك عملة ذهبية وقدمها اليها فنادت عليه قائلة «أى ذا النون انما الرأي الذى كونته عنى إلا ثمرة لتفكير ذكائك القاصر، فأنا أهمل لوجه الله

ولا أقبل شيئا من أحد سواه. أنا أعبده وحده، ولا آخذ شيئاً إلا منه وحده». وولت على أثر قولها في طريقها تاركة ذا النون يتمعن فى كلماتها.

وتحدث ذو النون عن أسفاره للبحث عن سبل الخلاص طيلة حياته «١٨٠ –٢٤٥هـ) قال: «لقد حصلت فى أول اسفارى علما يرضى الخاصة والعامة، وحصلت فى ثانيها علما يرضى الخاصة دون العامة وفي ثالث أسفار» حصلت من العلم ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة فغدوت شريدا طريدا. لقد حصلت العلم فى المرة الأولى والتوبة وهى مقبلة لدى الخاصة والعامة على حد سواء. وفى المرة الثانية وصلت الي التوكل على الله ومعاملته ومحبته وهى شئون تتقبلها الخاصة ولا تتفهمها العامة، وفى المرة الثالثة وصلت الى الحقيقة التي تسمو على العلم والعقل فأعرضا عنها لم يتفهماها.

وقد كان ذو النون مضطهدا من أجل تدريسه الصوفية علانية حتي انه قبض عليه فى أواخر أيامه وأرسل به الى بغداد حيث سجن مع السماح لصدقائه الصوفيين بزيارته إلى أن عفى عنه بأمر من الخليفة فعاد الى مصر حيث وافاه الأجل بمدينة الجيزة.

وهكذا، فقد كان ذو النون فى أول الأمر متنسكا متقشفا، زهد العالم فى الوحدة والعزلة حيث تدرب على كبح رغبات نفسه إلى أن تغلب عليها ثم سار عن طريق التوبة والتطهر الى أن حظى بهبة المعرفة فأصبح فى آخر الأمر صوفيا عارفا بالله، وهو يكاد أن يكون صوفيا تكلم عن المعرفة ووصف المراحل المختلفة التى تجتازها الروح فى سبيلها الى الوصول الي الله والعثور عليه.

ولذى النون أشعار رائعة تعكس رقة عشقه، وقوة ايمانه، منها قصيدته «كل المنى»:

أموتُ وما ماتت إليكَ صبابتى	ولا رويتُ من صدقِ حبك أوطارى
مناى المنى كلُّ المنى أنت لى منى	وأنت الغنى كل الغنى عند أقصارى

* * *

وأنت مدى سُؤلى وغايةُ رغبتى	ومضعُ شكواى ومكنونُ إضمارى
تحملَ قلبى فيك ما لا أبثُه	وإن طالَ سُقمى فيكَ أو طالَ إضرارى

* * *

وبين ضلوعي منكَ ما لولاك قد بدا ولم يبدُ باديه لأهلي ولا جاري
وبي منك في الأحشاءِ داءٌ مخامرٌ فقد هدمني الركن وأثبت أسراري

* * *

ألستَ دليلَ الركبِ إن هم تحيروا ومنقذ من أشفى على جرف هاري
أنرتُ الهدى للمهتدين ولم يكنْ من النورِ في أيديهم عشر معشاري

* * *

فنلني بعفوٍ منك أحيي بقربِه وغثْ بيسرٍ منك فقري وإعساري

* * *

مالى سواك..

مـــالى ســـواك أغـــثنى
وهـل ســـواك نصـــيــر
ولى إلـيك شـــفـــيع
بـدر المســـاء المنيـــر

« أحمد الحلوانى »

الشيخ العلامة أبو عبد الرحيم أحمد بن اسماعيل الحلوانى الشافعى أحد الذين يمثلون السمو الروحى فى الأدب الصوفى. وقد ولد الحلوانى فى احدى قرى محافظة الغربية (رأس الخليج) سنة ١٢٤٩ هـ وحفظ القرآن صغيرًا، ثم سرعان ما اتجه الى دراسة علوم الدين واللغة، وظل كذلك حتى التحق بالأزهر الشريف حيث تلقى العلم على يد اعلام عصره كالقصبى والباجورى والشبراوى.

وقد ترك الحلواني تراثًا شعريًا صوفيًا رائعًا ما بين اشعار وابتهالات واذكار صوفية لطالما تغنى بها المنشدون طيلة حياته، وبعد مماته فى سنة ١٣٠٨ هـ.

وسنقدم هنا لأحمد الحلوانى ابتهالاً صوفيا شديد الرقة والعذوبة بعنوان «مالى سواك».

استغفر الله ربّى	فالله رب غفورٌ
مما جناه جنَانِي	أو اللسان العَثُور
أو الجوارحُ منى	فإنها قد تثورُ
أو ظاهرٌ ليس يَخفى	أو باطنٌ مستورُ

* * *

أستغفر الله مما	قد قلتُه وهو زورٌ
ومن تَناسٍ بناسٍ	عمَّن هو المذكورُ
ومن خلافٍ أمورٍ	أنا بها مأمورٌ
أستغفر الله مماً	جرَى به المقدورُ
من كل أمر معيب	قد كنتُ فيه أمورُ

* * *

لم يُرض ربِّى وقلبى	بكسبه مسرورُ

إن سرتُ يوماً إليه   أطير حين أسيرُ
وعند أولِ جزء   منهُ يجيء الأخيرُ
وإن توخيتُ خيراً   صرفاً فكم أستخيرُ
وإن تهممتُ يومًا   إليه جاء الفُتورُ

* * *

ولتقدم أنوى   فيعرضُ التأخيرُ
هبْني تقدَمتُ، ماذا   يُجدي وقلبي نفورُ
وهبْه غيرَ نفورِ   هل فيه ثمَّ حضورُ
عدمتهُ من فؤادٍ   عند الصلاةِ يطيرُ

* * *

أنوي فيذهبُ لبِّي   وفي السلام يحورُ
أظلُّ أحسِبُ فيها   وما تحتويه الدُّهورُ
كأنّني بحسابي   مُوكلٌ أو أجيرُ
فلو تراني فيها   لقلْتَ: ذا مبهورُ
ففي العبادة طرْفي   ولو بصيراً ضريرُ
وفي الذنوبِ فؤادي   على عَماهُ بصيرُ

* * *

يا ويلنا من ذنوبٍ   فُجورُها مفجورٌ
ومن خُطايَ اللواتي   إلى الخطى تستطيرُ
وآه من كُلِّ إثمٍ   عليه يُطوى الضميرُ
ومن مقاصد سوءٍ   جرى به التعبيرُ

* * *

شيءٌ ومنْ ، لستُ أدري؟   فذاك شيءٌ كثيرُ

قبائحُ كنتُ فيها | أسرى وطور أسيرُ
ماتت وعاشت، فقلبى | من أجلها مسفطورُ
سُررتُ منها زماناً | وغمُّها مذخورُ
نسيتها ودعاها | كتابى المسطورُ

* * *

ماذا أقول لربيٍّ | إذا بدا التحريرُ
يارب أنت رحيمٌ | وبالسَّماح جديرُ
يا ربّ أنت عفوٌ | وأنت ربّ قديرُ
يارب إنى حقيرٌ | جداً وأنت الكبيرُ

* * *

وشأنُ من جَلَّ يغضى | إذا أساءَ الحقيرُ
وأين تُربٌ خسيسٌ | من ربِّه يا مُجيرُ
وما أريد احتجاجاً | عليكَ بل أستجيرُ
أجِرْ عبيدَكَ يا منْ | سواه ليس يُجيرُ

* * *

مالى سواكَ أغثنى | وهل سواكَ نصيرُ
ولى إليك شفيعٌ | بدرُ السماءِ المنيرُ
غوثُ الأنام المرجى | إذا المساء تمورُ
به توسَّلتُ فأجبر | كَسْرى ، فإنى كسيرُ
واسكُب عليه التحايا | ما فاض منه النورُ

* * *

مجاهدة النفس..

وذلك لأن الناسَ قــد آثرُوا الهـــوى
على الحقِ ســراً ثم جــهــراً عــلانيَــا
فــهــذا زمـــانُ الشــرِ فــاحــذرْ ســبيــلَه
فــإن ســبيل الشــرِ يروى المهــاويا

« الأنطاكي »

هذا الصوفى الكبير أبو عبدالله أحمد بن أحمد بن عاصم الأنطاكى المتوفى سنة ٢٣٩ هـ يطلق عليه اسم "جاسوس القلب" حيث يدور كلامه دوما على المراقبة والمحاسبة وكبح جماح النفس . والأنطاكى يرى أن الصوفية هم "أهل الصدق" ، ومجالستهم لذلك تكون بـ "الصدق". وعلم التصوف -كما يراه- هو "علم معاملات القلوب".

ويقول الأنطاكي: «إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الروح، وعلى نفس مسئولة فتعهدها بالمحاسبة، وأستح من قبولك من نفسك دعواها الصدق، والحكيم من نظر بعين القلب، والقلوب تحتاج من أصحاب النفس الحية إلى دوام الرعاية، وإجمام القلوب يكون بقلة المخالطة وترك الطلب، ورقتها تستجلب بدوام مجالسة أهل الذكر من أهل العقول، ونورها يتحصل بدوام الحزن، واستفتاح الحزن يكون بطول الفكر، والتماس الفكر يكون فى مواطن الخلوات.

وعندما نطالع ما تركه لنا الإنطاكي من رائع الشعر، وجميل النظم، نراه يلخص فيه حياته، ومجاهداته الروحية ، وحقيقة تصوفه.

ولعل هذه القصيدة الرائعة والتى يعلم بها مريدوه «زمان الشر»، خير دليل على ذلك.

ألم ترى أن النفس يرديك شرُها ... وأنك مأخوذ بما كنت ساعيا

فمن ذا يريد اليوم للنفس حكمةً ... وعلمًا يزيد العقل للصدر شافيا

هلمَّ إليّ الآن إن كنت طالبًا ... سبيل هدى أو كنت للحق باغيا

فعندى من الأبناء علمٌ مجربٌ ... فنه بالهمام ومنه سماعيا

* * *

أخبـرُ أخبـارًا تقادمَ عهدُها ... وكيف بدا الإسلام إذ كان باديًا
وكيف نما حتى استتم كمالهُ ... وكيف ذوى اذ صار كالثوب باليا
ومن بعدِ ذا عندي من العلم جوهرٌ ... يفيدُك علمًا إن وعيت كلاميا
وعملا غزيرًا جالي الرين والصدى ... عن القلب حتى يترك القلب صافيا

* * *

فأصبحتُ بالتوفيق للحق واضحًا ... وذاك بإلهام من الله ماضيا
لأني في دهر تغرب وصفه ... فصار غريبا موحش الأهل قاسيا
فأحوج ما كنا إلى وصف ديننا ... ووصف دلالات العقول زمانيا
عجائب من خير وشر كليهما ... فإن كنت سماعا بدا للقلب واعيا
فقد ندب الأسلام أحمد ندبةً ... كما ندب الأموات ذو الشجو شاجيا

* * *

فأول ما أبدأ بالحمد للذي ... يراني للاسلام اذ كان باريا
وصيرني إذا شاء من نسل آدم ... ولم أكُ شيطانا من الجن عاتيا
ولا شاء من إبليس صير مخرجي ... فكنت مضلاً جاحدَ الحقِ باغيا
ولكنه كان بالطفِ سابقا ... وإذا لم أكن حيًا على الأرض ماشيا

* * *

وصيرني من بعد في دين أحمدٌ ... وعلمني ما غاب عنه سؤاليا
وفهمني نورًا وحكمة ... فشكري له في الشاكرين موازيا
فمن أجلَ ذا أرجو إذ كان غافرًا ... ومن أجل ذا قد صح مني رجائيا

ومن أجل ذا أرجوه إذ لم يكافني ولكن بلطف منه كان ابتدائيا

* * *

فلا كنت ذا عقل لما قد رجوته لقد كنتُ ذا خوف وشكرى محاذيا

ولو كنت أرجوه لحسن ضيعه شكرت فصح الآن منى حيائيا

فشكرى له إذا صيرت بالحق عالما وللشر وصافا وللخير واصيا

ومن بعد ذا وصفى لنفسي وطبعها ووصفى غيرى إذ عرفت ابتدائيا

* * *

فهذا من الأبناء وصف غرائب. فمن كان وصفى لكان بحاليا

فكيف به إذا كان بالحق عالما فهيهات لا ينجيه إلا الفافيا

وذاك لأن الناس قد آثروا الهوى على الحق سر ثم جهراً علانيا

فهذا زمان الشر فاحذر سبيله فإن سبيل الشرِ يردى المهاويا

* * *

البردة..

كـــيف ترقى رقـــيك الأنـبــيـــاء

يا ســمـــاء مـــا طـاولتــهـــا ســمـــاء

« البوصيرى »

البوصيري هو امام المادحين، وأحد أئمة الصوفية المعدودين، الذين خلد ذكرهم، وخاصة بسبب افاضته، واجادته في مدح الرسول الأعظم، وتقديمه للعالم الاسلامي همزيته الخالدة "البردة". وقد سمى الامام الجليل أبو عبدا، شرف الدين محمد بن سعيد المغربي الأصل بالبوصيري نسبة إلى "بوصير قوريدس" من قرى بنى سويف حيث نشأ هناك وأمضى جزءا من عمره إلى أن أقام بالاسكندرية آخر حياته حتى مات ودفن في قبره الذي شيد عليه مسجده المسمى باسمه.

وقد كان البوصيرى طيلة حياته التي امتدت ما يقرب من تسعين عاما (٦٠٨ – ٦٩٦هـ) أحد المدافعين عن الاسلام، وأعظم من ردوا علي من افتروا عليه، وخاصة ممن أنكروا نبوة الرسول من غير المسلمين، حيث ناقشهم، وجادلهم وأقام الحجة عليهم، ويظهر ذلك في مدائحه النبوية

وتذكر بعض كتب الصوفية ومنها كتاب «طبقات الشاذلية الكبرى» أن البوصيرى، كان من أصحاب الهمة العالية، كما تذكر أنه تعرف بأهل الصلاح والتقوى والعلم في الاسكندرية، وانقطع الي التصوف، وما اليه، ودرس آدابه وأسراره. وأنه سلك على يد سيدى أبي العباس المرسي وأخذ عنه الحقائق والأسرار.

وسوف نقدم هنا همزية البوصيرى النورانية«البردة» التى لم تزل تمثل درة على جبين الشعر العربي قاطبة، وأعظم ما كتب فى مدح الرسول الأعظم من قصيد.

وقد اشتهر البوصيرى بهذه القصيدة، وكان قد أصابه الفالج فقطع على نفسه عهدا لئن شفاه الله أن ينظم قصيدة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام «خير البرية»، ولذلك سميت قصيدته «الكواكب الدرية فى مدح خير البرية».

ويقال إن البوصيرى كان قد بدأ فى نظم القصيدة أثناء مرضه، فلما انتهى منها رأى

فى المنام رسول الله يمر بيده الكريمة على جسمه كله فيبرأ، ولذلك سميت القصيدة أيضاً باسم «البرأة»، وقد جازاه الرسول بأن خلع عليه بردته، ولذا سميت كذلك بالبردة.

وقد ذاع صيت هذه القصيدة حتى بلغ الآفاق، وتبارى الناس فى كل زمان ومكان، حتي يومنا هذا في ذكر مالها من كرامات، حتي صاروا ينشدونها فى مجالسهم، واحتفالاتهم الدينية تشفعا بالنبي، وطلبا لتفريج كربتهم، حتي سميت «قصيدة الشدائد».

ولهذه القصيدة الرائعة قصة ذكرها الشيخ الحملاوى فى كتابه «طراز البردة». وقد أراد بعض المحبين للبوصيري أن يرفعوا من قدر البردة. فنسبوا إليها الأشياء وغالوا فيما نسبوه إلى البوصيرى من كرامات فى البردة، حقيقة أن بعض ما نسب إليها صحيح، ولكن بعضها كان مغالا فيه ونقتصر هنا على الصحيح ونترك ما عداه، ما دامت صحته لم تثبت علي الاطلاق.

فالصحيح ما ذكر من قصة الشيخ الحملاوي حين أصيب بخراج فى بطنه استعصى علي الأطباء شفاؤه. فأرسل من يحج عنه علي حسابه الخاص وأمره أن يقرأ البردة أمام قبر الرسول متجها له بالشفاء.

وفى هذه الساعة التى قرئت فيه البردة أمام قبر الرسول انفجر الخراج من قلب الشيخ الحملاوى، وخرج الدم بكثرة حتى ملأ الحجرة ثم شفى بعدها.

ولما عاد الحاج من رحلته أخبره أنه قرأها الساعة كذا فى يوم كذا أى نفس الموعد الذى انفجر فيه الخراج وخرج الدم من قلب الشيخ الحملاوى.

ومن الصحيح أيضاً ما روى عن رجل أنه كان يقرأها ويواظب على قراءتها وأن بعض جيرانه كانوا يشمون رائحة جميلة تخرج من حجرته أثناء قراءته للبردة وتهب عليهم بين الحين والآخر.

وفيما يلى رائعة البوصيرى «البردة»، التى ما زالت حديث الناس فى كل مكان من العالم الاسلامى حتى يومنا هذا:

أمِن تذكرِ جيرانٍ بذى سَلمِ ... مَزَجْتَ دَمعًا جرى من مقلةٍ بدمِ

أم هبت الريحُ من تقاءِ كاظمةٍ ... وأومض البرقُ فى الظلماءِ من إضَمِ

فما لعينيكَ ان قلتَ اكففا هَمَتا ... وما لقلبكَ ان قلتَ استفق يَهِمِ

أيَحسبُ الصَّبُّ أن الحبَّ مُنكتمٌ ... ما بين منسجمٍ منه ومُضطَرِمِ

لولا الهوى لم تُرِق دَمعًا على طللٍ ... ولا أرقتَ لذكرِ البانِ والعَلَمِ

فكيفَ تنكرُ حباً بعدما شهدت ... به عليك عُدُولُ الدمعِ والسقمِ

وأثبتَ الوجدُ خَطَّى عبرةٍ وضَنىً ... مثل البهَارِ على خديكَ والعنَمِ

نعم سرى طيفُ من أهوى فأرقنى ... والحب يعترض اللذاتِ بالألمِ

بالائمى فى الهوى العذريِّ معذرةً ... منى اليك ولو أنصفتُ لَم تَلُمِ

عَدَتكَ حَالى لاسري بمستترٍ ... عن الوُشاةِ ولا دائى بمُنحسِمِ

مَحَضتَنى النُّصحَ لكن لستُ أسمَعُهُ ... إن المحبَّ عن العُذالِ فى صَمَمِ

إنى اتهمتُ نصيحَ الشَّيبِ فى عَذَلى ... والشيبُ أبعدُ فى نصحٍ عن التُّهمِ

* * *

فإنَّ أمَّارتى بالسوءِ ما اتعظت ... من جهلها بنذيرِ الشيبِ والهَرَمِ

ولا أعَدت من الفعلِ الجميل قِرَى ... ضيفٍ ألَمَّ برأسى غير مُحتشمِ

لو كنتُ أعلَمُ أنى ما أوقرُهُ ... كتمت سراً بدا لى منه بالكتمِ

من لِي بردِّ جِمَاحٍ من غوايتها ... كما يُردُّ جماحُ الخيلِ باللُّجُمِ

فلا تَرُم بالمَعَاصِى كسر شَهوتِهَا ... إن الطعامَ يُقوى شهوةَ النَّهِمِ

والنفسُ كالطفلِ إنْ تهمله شبَّ علَى ... حُبِّ الرضاعِ وإن تفطمه ينفطمِ

فاصرف هواها وحاذر أن تولّيَه   إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

وراعها وهي في الأعمال سائمةٌ   إن هي استحلت المرعى فلا تُسم

كم حسّنت لذةً للمرء قاتلةً   من حيثُ لم يدرِ أنّ السُّمَّ فى الدَّسَمِ

واخشَ الدسائسَ من جوعٍ ومن شبعٍ   فَربّ مخمصةٍ شرٌّ من التُخمِ

واستفرغِ الدمعَ من عينٍ قد امتلأت   من المحارمِ والزم حميةَ الندمِ

وخالف النفسِ والشيطانَ واعصهما   وان هما محضاك النصحَ فاتَّهِمِ

ولا تطعْ منهُما خصمًا ولا حكما   فأنت تعرف كيد الخصمِ والحكمِ

أستغفر الله من قولٍ بلا عملٍ   لقد نسبت به نسلا لذى عقمِ

أمرتُكَ الخير لكن ما ائتمرتُ به   وما استقمتُ فما قولى لك استقمِ

ولا تزودتُ قبل الموتِ نافلةً   ولم أُصَلِّ سوَى فرضٍ ولَمْ أصُمِ

* * *

ظلمتُ سُنَّةَ من أحيا الظلامَ الى   أن اشتكت قدماهُ الضرَّ من وَرَمِ

وشد من سغبٍ أحشاءه وطوى   تحت الحجارةِ كشحًا مُترَفَ الأدمِ

وراودتْه الجبالُ الشمُّ من ذهبٍ   عن نفسه فأراها أيَّما شَمَمِ

وأكدت زهدَهُ فيها ضرورتَه   إن الضرورة لا تعد وعلى العصمِ

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من   لولاه لم تخرج الدنيا من العدمِ

مُحَمَّدٌ سيد الكونين والثقليـ   ـن والفريقين من عربٍ ومن عجمِ

نبينا الآمر الناهى فلا أحَدٌ   أبَرَّ فى قولِ لا منه ولا نَعَمِ

هو الحبيبُ الذى تُرجَى شفاعتُه   لكلِّ هَولٍ من الأهوالِ مقتحمِ

دعا إلى الله فالمستمسكون به ... مستمسكون بحبلٍ غير منفصمِ

فاق النبيين في خَلقٍ وفي خُلُقٍ ... ولم يُدانوهُ في علمٍ ولا كَرَمِ

وكُلُّهُم مِن رسولِ الله مُلتمِسٌ ... غَرفًا من البحرِ أو رشفاً من الدِيَمِ

وواقفونَ لديه عند حَدِّهِمُ ... من نقطةِ العلمِ أو من شكلةِ الحِكمِ

فهذا الذي تم معناهُ وصورته ... ثم أصطفاه حبيبا باري النَّسَمِ

منزهٌ عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسمِ

دع ما ادعته النصاري في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وأنسب إلى ذاته ما شئتَ من شرفٍ ... وأنسب إلى قدره ما شئت من عِظمِ

فإن فضل رسول الله ليس له ... حَدٌّ فيُعربَ عنه ناطق بفمِ

لو ناسبت قدره آياته عظمًا ... أحيا اسمُهُ حين يدعى دَارِسَ الرِّمَمِ

لم يمتَحنَّا بما تَعيَا العقول به ... حرصا علينا فلم ترتبَ ولم نهمِ

أعيا الورى فَهمُ معناه فليس يُرَى ... للقرب والبعد فيه غير منفحمِ

كالشمس تظهر للعينين من بُعدٍ ... صغيرةً وتُكلُّ الطرفَ من أممِ

وكيف يدرك في الدنيا حقيقتَهُ ... قومٌ نيامٌ تسلوا عنه بالحلمِ

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ ... وأنه خير خلق الله كُلِّهِمِ

وكل آيٍ أتى الرسل الكرام بها ... فإنما إتصلت من نوره بِهِمِ

فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبها ... يُظهِرنَ أنوارها للناس في الظلمِ

أكرم بخلقٍ نبي زانه خُلُقٌ ... بالحسن مشتملٍ بالبشرِ متسمِ

كالزهرِ في ترفٍ والبدرِ في شرفٍ ... والبحر في كرمٍ والدهرِ في هممِ

كــأنه وهـو فــردٌ فـي جــلالتــه ... في عــسكرٍ حين تلقاه وفي حــشمِ

كــأنما اللـؤلؤ المكنون في صــدف ... من مــعــدنى منطقٍ منهُ ومــبتَسمِ

لا طيـبَ يعــدلُ تربًا ضَمَّ أعظُمَــهُ ... طُوبَى لمنتــشقٍ منه وملتــثِمِ

* * *

أبان مــولــده عن طيب عـنصــرهِ ... يا طيبَ مـبتـدإٍ منه ومــختـتمِ

يومٌ تـفــرس فــيــه الفــرس أنهم ... قــد أنـذروا بحلول البـؤس والنقمِ

وبات إيوان كــسـرى وهو منصـدعٌ ... كشمل أصـحـاب كسرى غير ملتئمِ

والنـار خــامــدة الأنفــاس من أسف ... عليـه والنهر سـاهي العين من سدمِ

وسـاء سـاوةَ أن غـاضت بحـيرتهـا ... وردَّ واردهـا بالـغــيـظ حين ظمي

كــأنَّ بالنار مـــا بالماء من بللٍ ... حــزنـاً وبالماء مـا بالنار من ضـرمِ

والجن تـهـتف والأنوار سـاطعـة ... والحقُ يظهــرُ من مــعـنى ومن كـلمِ

عَمُوا وصَمُّوا فـإعـلانُ البشـائر لم ... تســمع وبـارقـةُ الأنـذار لم تُشَمِ

من بعـدِ مـا أخبَـرَ الأقـوامَ كـاهنُهُم ... بأن ديـنـهـم المعــوج لم يَقُمِ

وبعـدمـا عـاينوا في الأفق من شـهـب ... منقـضـة وفق مـا في الأرض من صنمِ

حـتى غـدا عن طريق الوحي منهـزمٌ ... من الشـيـاطين يقـفـوا إثرَ منهـزمِ

كــأنهـم هـربـا أبـطـال أبـرهـة ... أو عـسكر بالحـصى من راحـتيـه رُمِي

نبـذًا بـهِ بعـد تسـبـيحٍ ببطنهـمـا ... نَبـذَ المُسَبِحِ من أحـيـاءِ مُلتـقَمِ

* * *

جـاءت لـدعـوته الأشـجـار سـاجـدةً ... تمشي اليـه على سـاقٍ بلا قــدمِ

كــأنما سطرت سطرا لما كــتــبــت فُــروعُــهــا مــن بديع الخــط باللَّــقَمِ

مِــثلُ الــغَــمَــامَــةِ أنىَّ سَــارَ ســائرةٌ تقــيــه حــرَّ وطــيسٍ للهــجــيــرِ حَــمِي

أقــســمت بالقــمــر المنشــق ان له من قلبــه نســبــة مــبــرورة القــسم

ومــا حــوى الغــار مــن خــير ومن كــرم وكل طــرف من الكــفــار عنه عَــمِي

فــالصدق فــى الغار والصــديق لم يرمــا وهم يقــولون مــا بالغــارِ من أرِمِ

ظنوا الحــمامَ وظنــوا العنكبــوتَ على خــيــر البــرية لم تنسجْ ولم تَــحُمِ

وقــاية الله أغنت عن مــضــاعــفــة مــن الدروع وعــن عــالٍ من الأُطُمِ

ما ســامنى الدهر ضَــيمًــا واستجرتُ به الا ونــلتُ جــوارًا مــنهُ لــم يُضَــمِ

ولا التــمــست غــنى الدارين مــن يده الا استــلمت النــدى من خــيــر مــستلم

لا تُــنــكــرِ الــوَحْــيَ مــن رؤيــاهُ إنَّ لَــهُ قــلبًــا إذا نامت العــيــنانِ لــم ينَــمِ

وذاك حــين بــلــوغٍ مــن نــبــوّتــه فليس ينكر فــيــه حــال مــحــتلمِ

تبــارك الله مــا وحــى بمكتــسب ولانبــى عــلــى غــيــب بمُتَّــهَــمِ

كــم أبرأت وصــبــًا بــاللمس راحــتــه وأطــلقــت أربًا من ربقَــةِ الــلَّمَــمِ

وأحــيــتِ السنَةَ الشــهــبَــاء دعــوتُه حــتى حكت غــرةً فــى الأعــصُــرِ الدهمِ

بعــارضٍ جَــاد أو خِلتُ البطَــاح بهــا ســيبًــا من اليمِ أو ســيــلاً من العَــرِمِ

* * *

دعنــى ووصــفــى آيات لــه ظهــرت ظهــور نار القــرى لبــلاً على عَــلَمِ

فــالــدر يزدادُ حــسنًا وهو منتــظمٌ وليس يَنقُصُ قــدراً غــيــر منتــظمِ

فــمــا تَطَــاول آمــالِ المديــح الى مــا فــيــه من كــرم الأخــلاق والشــيمِ

آياتُ حق من الرحـــمن مـــحـــدثة قـــديمة صـــفـــة الموصـــوف بالقـــدم
لم تقـــتـــرن بزمـــانٍ وهي تخـــبـــرنا عـــن المعــــاد وعـــن عـــــدٍ وعـــن إرمِ
دامت لدينا ففـــاقت كـل مـــعـــجـــزة من النبـــيينَ إذ جـــاءَت ولـــم تَدُمِ
مـــحكمـــاتٌ فـــمـــا تبـــقـــينَ من شُبَـــهٍ لذى شـــقـــاقٍ ومـــا تبـــغينَ مـــن حكمِ
مـــا حُـــوربِتَ قط الا عـــادَ من حـــرب أعـــدى الأعـــادي اليـــهـــا ملقى الـــسَّلَمِ
ردت بلاغـتـــهـــا دعـــوى مـــعـــارضـــهـــا رد الغـــيـــور يد الجـــاني عن الحُـــرَمِ
لهـــا مـــعـــانٍ كـــمـــوج البـــحـــرِ في مددٍ وفـــوق جـــوهره في الحـــسن والقـــيمِ
فـــمـــا تعـــد ولا تحـــصـــى عـــجـــائبـــهـــا ولا تســـام على الأكـــثـــار بالسَّـــأمِ
قُـــرَّت بهـــا عين قـــاريهـــا فـــقـــلت له لقـــد ظَفـــرتَ بحـــبل الله فـــاعـــتـــصمِ
ان تَتلُـــهَـــا خـــيـــفـــةً من حـــر نـــار لظى أطفـــأت حـــر لـــظى من وردها الشَّـــيمِ
كـــأنهـــا الحـــوضُ تَبـــيضُّ الوجـــوهُ به من العـــصـــاةِ وقـــد جـــاءُوهُ كـــالحُـــمَمِ
وكـــالصـــراط وكـــالمـــيـــزان مـــعـــدلةً فـــالقـــسطُ من غـــيـــرها في الـــناس لم يَقُمِ
لا تعـــجـــبن لحـــســـود راح ينكـــرها تجـــاهلاً وهـــو عين الحـــاذق الـــفـــهـــمِ
قـــد تنكر العينُ ضـــوءَ الشـــمس من رمـــدٍ ويـــنكـــر الفـــمُ طعـــمَ الماء مـــن ســـقـــمِ

* * *

يا خـــيـــر من يَمَّـــمَ العـــافُـــونَ ســـاحـــتـــهُ ســـعـــيـــا وفـــوق مـــتـــون الأينُقِ الرُّسُمِ
ومَن هـــو الآيةُ الكـبـــرى لمعـــتَـــبـــرٍ ومن هو الـــنعـــمـــة العظـــمى لمغـــتـــنمِ
ســـريـــت من حـــرمٍ لـيـــلا الي حـــرمٍ كـــمـــا ســـرى البـــدرُ في داجٍ مـــن الظلمِ
وبـــت تـــرقـــى الـــى أن نـــلـــتَ مـــنـــزلـــةً من قـــابِ قـــوسين لم تـــدرك ولم ترمِ

وقـدمـتك جـمـيع الأنبـيـاء بهـا ... والرسل تقـديم مـخـدوم على خـدم

وأنت تخـتـرق السـبع الطبـاق بهم ... في مـوكب كـنت فيـه صـاحـب العَلَم

حـتى إذا لم تـدع شـأواً لمسـتـبق ... مـن الدنُوَ ولا مـرقـى لمسـتـنـم

خـفـضـت كل مـقـام بـالاضـافـة اذ ... نوديت بالرفع مـثل المفـرد العلم

كـيـمـا تفـوز بـوصلٍ أيّ مـسـتـتـر ... عن الـعـيـون وَسـرٌ مكـتـتـم

فـحُزتَ كـل فـخـارٍ غيـر مـشـتـرك ... وَجُـزتَ كل مـقـامٍ غـيـر مـزدحم

وجل مـقـدارُ مـا وليت مـن رتب ... وعـز ادراكُ مـا أوليت من نـعم

بشـرى لنا مـعـشـر الاسـلام ان لنا ... من الـعنـاية ركنـا غـيـر منهـدم

لما دعـا الله داعـينا لطـاعـتـه ... بأكـرم الـرسل كـنا أكـرمَ الأمـم

* * *

راعت قلـوب العـدا أنبـاء بعـثـتـه ... كنبـأة أجـفلت غـفـلاً من الغـنم

مـا زال يلـقـاهم فى كل مـعـتـرك ... حـتى حكـوا بالقنَا لحـمـاً على وضَم

ودوا الفـرار فـكادوا يغـبطـون به ... أشلاء شـالت مع العـقـبـان والرخم

تمضى الـليـالى ولا يدرون عـدتَهـا ... مـا لم تكـن من ليـالى الأشهـر الحُرم

كـأنما الدين ضـيف حل سـاحـتـهم ... بكـل قَـرمٍ الي لحـم العِـداَ قَـرِم

يَجُـرُ بُحَـرَ خَـمـيسٍ فـوق سـابـحـة ... يـرمـى بمـوجٍ مـن الأبـطـال مُلـتَطِم

من كـل منتـدب لله مـحـتـسـب ... يسطـو بمسـتـأصل للكفـر مـصـطلم

حـتى غـدت مِلةُ الاسـلام وهى بهم ... من بعـد غـربتـهـا مـوصـولة الرحم

مكـفـولةً أبـدا منهـم بخـيـر أب ... وخـيـر بـعلٍ فلـم تَيـتَم ولم تَئِـم

هم الجبالُ فسَلْ عنهم مصادمَهُمْ ... ماذا رأي منهم في كل مصطدمِ

وسل حنينًا وسل بدرًا وسل أُحدًا ... فصول حتف لهم أدهى من الوَخَمِ

المُصدري البيض حُمرًا بعدما وردت ... من العدا كل مسوَدٍّ من اللمَمِ

والكاتبينَ بسمرِ الخَطِّ ما تركت ... أقلامهم حرفَ جسمٍ غيرَ منعجمِ

شاكي السلاح لهم سيمًا تميزهم ... والورد يمتاز بالسيما من السَّلمِ

تهدي اليك رياحُ النصرِ نشرَهُمُ ... فتحسب الزهرَ في الأكمامِ كل كَمي

كأنهم في ظهور الخيل نبتُ رُبًا ... من شدة الحَزم لا من شدة الحُزُمِ

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقًا ... فما تفرق بين البَهمِ والبُهَمِ

ومن تكن برسول الله نصرتُه ... إنَ تَلقَهُ الأسدُ في آجامِها تَجِمِ

ولن ترى من ولي غير منتصرٍ ... به ولا من عدو غير منقصمِ

أحل أمته في حرز ملته ... كالليثِ حلَّ مع الأشبالِ في أَجَمِ

كم جَدَّلَت كلماتُ الله من جَدِلٍ ... فيه وكم خَصَمَ البرهانُ مِن خَصِمِ

كفاك بالعِلم في الأميِّ معجزةً ... في الجاهلية والتأديبِ في اليُتُمِ

* * *

خدمتُهُ بمديح أستقيلُ به ... ذنوبَ عمرٍ مضى في الشعرِ والخِدَمِ

اذ قلداني ما تخشى عواقبه ... كأنني بهما هديٌ من النعمِ

أطعت غيَّ الصبا في الحالتين وما ... حصلت الا على الآثامِ والندمِ

فيا خسارةَ نفسٍ في تجارتها ... لم تشتر الدين بالدنيا ولم تَسُمِ

ومن يبع آجلاً منه بعاجِله ... يبن لهُ الغَبنُ في بيعٍ وفي سَلَمِ

إنْ آتِ ذنبًا فما عهدى بمنتقضٍ ... من النبى ولا حبلى بمُنصَرِمِ
فإن لى ذمّةً منهُ بتسميتى ... محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن فى معادى آخذاً بيدى ... فضلاً وإلا فَقُلْ يا زَلةَ القدمِ
حاشاهُ أن يحرم الراجى مكارِمَهُ ... أو يرجع الجارُ منه غير مُحترمِ
ومنذ ألزمتُ أفكارى مدائحه ... وجدته لخلاصى خير ملتزمِ
ولن يفوت الغنى منه يداً تَرِبَتْ ... إن الحَيا يُنبتُ الأزهَارَ فى الأكَمِ
ولم أرِد زهرةَ الدنيا التى اقتطفت ... يدا زهيرٍ بما أثنى على هَرِمِ

* * *

يا أكرمَ الخلق ما لى من ألوذُ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهُكَ بى ... اذا الكريمُ تحلى باسمٍ مُنتقمِ
فان من جُودِكَ الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوحِ والقلمِ
يا نفس لا تقنطى من زلةٍ عَظُمتْ ... إن الكبائرَ فى الغفرانِ كاللَّمَمِ
لعلى رحمةَ ربى حين يقسمها ... تأتى على حسب العصيان فى القسم
يارب واجعل رجائى غير منعكسٍ ... لديك واجعل حسابى غير منخرمِ
والطف بعبدكَ فى الدارينِ إن له ... صبراً متى تدعهُ الأهوالُ ينهزِمِ
وأذَن لسحبٍ صلاةٍ منكَ دائمة ... على النبىِّ بمنهلٍ ومُنسجِمِ
ما رنَّحت عذابات البانِ ريحُ صَبَا ... وأطرب العيسَ حادى العيسِ بالنَّغَمِ
ثم الرضا عن أبيبكرٍ وعن عمر ... وعن علىٍّ وعن عثمانَ ذى الكرَمِ
والآل والصحب ثم التابعين فهم ... أهل التقى والنقا والحلم والكرم

يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا ... واغفر لنا ما مضى يا واسعَ الكرمِ

واغفر الهى لكل المسلمين بما ... يتلون فى المسجد الأقصى وفى الحرمِ

بجاه من بيته فى طيبَة حَرِم ... واسمُهُ قسمٌ من أعظم القسمِ

وهذه بردة المختار قد خُتِمَتْ ... والحمد لله فى بدءٍ وفى خَتَمِ

أبياتُهَا قد أتت ستِّينَ مع مِائةٍ ... فرج بها كربْنَا يا واسِعَ الكَرَمِ

* * *

سلمى..

شربنا حُميّا الكأس فى قدس حضرةٍ

وأكرم بها فى حضرة القُدس من خمرِ

لنا عُصِرَتْ من كَرمْ نور جمال مَنْ

سقانا وقد غنينا وحرنا فما ندرى

سكرنا بها من شمها قبل شربها

نشاوى بريّاها إلى آخر الدهرِ

« اليافعى »

هذا شاعر صوفى آخر . يفيض شعره رقة وعذوبة، ويعجز المرء عن ادراك كل معانيه، وبلوغ جميع مقاصده، ما لم يحط بشخصية صاحبه المتفردة، ومكانته الرفيعة فى عوالم الصوفية، والحب الالهى. شاعرنا هنا هو عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى، نسبته الى "يافع" من حمير، مولده ونشأته فى عدن بأرض اليمن.

كان اليافعى ذا علم غزير وإطلاع كبير، ومعرفة واسعة، وعلوم نافعة. بدأ حياته مهتما بدراسة الفقه، وعلوم القرآن، ووجد فى نفسه مع الأيام ميلا الي التصوف.

وعندما وجد اليافعى فى نفسه رغبة في الاستزدادة من مناهل العلم، على يد أعلام عصره، ارتحل الي القدس، ثم دمشق ثم الحجاز لينتهي في مصر، حيث ذاع صيته، وانتشرت قصائده وترانيمه الصوفية، وأضحى علما من أعلام التصوف.

ولليافعى مؤلفات كثيرة فى التصوف وأعلامه تهافت الناس عليها كثيرا، على مدى سبعين عاما وهى عمره كله (٦٩٨ -٧٦٨م)، ومن أشهر هذه المؤلفات: «نشر المحاسن الغالية فى فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية».

وفى هذا المؤلف يشرح اليافعى بأسلوب أدبى جميل الأحوال والمقامات، كما يضمنه ما نظمه من أشعار وترانيم صوفية.

ومن أهم مؤلفات اليافعى أيضاً «روض الرياحين فى مناقب الصالحين»، الذى يتناول سير خمسمائه من أعلام الصوفية الكبار، أخبارهم ، مناقبهم، كراماتهم، شمائلهم ، وكل ما يرتبط بحياتهم وأعمالهم.

أما شعر اليافعى فيمكن أن ننظر إليه كمنظومات صوفية تمثل فنا وسطا، فلا هي بالشعر المطبوع، ولا هي بالنظم المتكلف، وقصائده تفيض بصدق العاطفة ، وشفافية الروح، ويغلب عليها الرمز.

وانظر اليه يقول في قصيدة بعنوان «الباب اللب في مدح شهيد الحب» يتوقف عند أروع المعاني الصوفية «المحبة» ويدعو إلى الموت عشقا:

قتيلُ العسوى في مذهب الحب والفقر	بلا عوضٍ حاشاه من طلب الأجرِ
سوى رؤية المحبوب في ساعة القا	اذا ما قتيل السيف عوض في الحشرِ
فشتّان ما بين المقامين في العُلى	وبين شهيد الحب والسيف في القَدْرِ
فما طالبُ مولى له طال شوقه	وفي حبه قد مات خالٍ عن الصبرِ
كطالب مطعوم الجنان وشربها	وملبوسها والخيل والحور والقصرِ
كفى شرفًا موت المحب صبابةً	بمولى، وفضلاً جلّ قدراً عن الحصرِ
قتيل جمالٍ قد وَدُوه برؤيةٍ	ووصلٍ وقربٍ والتنادم والسرِّ

وتكمن أهمية شعر اليافعي في أنه ينشر الثقافة الصوفية وأعلامها. ولليافعي أشعار كثيرة تفيض رقة وعذوبة، الا اننا سوف نورد هنا رائعته الذي اخترنا لها اسم «سلمى»، واسمها الأصلي «الراح المختوم والدر المنظوم في مدح المشايخ أصحاب السر المكتوم، وذم الطاعنين فيهم من جميع الخصوم»:

سلا عن حمى سلمى، وعن أهله الغرّ	عسى خبرٌ يلقاكما، طيّب الذكرِ
يجيءُ به من نحوها عذبُ منطق	يفوح به من ريحها طيّبُ النشرِ
يُخَبّر عن سلمى وعن ذلك الحمى	وقول لسان الحال في نظمه الدرّي
رعى الله عهداً مرّبع جيرة الحمى	هنا في رياضٍ زاهراتٍ به زُهْر
سقتنا بها سلمى من الراح عندما	بدتْ فأضاء الكون من جانب الخدر

* * *

أماطت حجابًا عن بهاء جمالها ... فهمنا سكارى فى المهامة والقفرِ
نرومُ التسلىَّ عن هواها ببُعدنا ... وكلٌّ جمال فى الوجود بها يغرى
خليلَّى ما سلمى ونجدٌ وما الحمى ... وما راحُها، ما كأسُها، ما الهوى العُذرى
شربنا حميًّا الكأس فى قُدس حضرة ... وأكرِم بها فى حضرة القُدْسِ من خمْرِ
لنا عُصرت من كرْم نورِ جمال من ... سقانا، وقد غبنا وحرنا فما ندرى

* * *

سكرنا بها من شمها قبلَ شربْها ... نشاوى بريّاها إلى آخر الدهرِ
أو السّكر ذا من رؤية الكأس، أو أتت ... به رؤية الساقى الينا ذوى السُّكرِ
تجلىٍّ بأوصاف الجمالِ فشاهدت ... عيونٌ قلوبَ ما به حار ذو الفكْرِ
فيا ليلةٌ فيها السعادات والمنى ... لقد صغُرت فى جنبها ليلة القدْرِ
فلما شربنا الراحَ فى ساحة الرِّضا ... أتانا أغرٌّ السَّعْد بالخلعِ الخُضْرِ
رسول عنايات برسم ولاية ... وتصريفنا فى الملك فى البَرِّ والبحْرِ
وضاءت لنا أنوارُ غيبٍ وشوهدت ... أمورٌ وأعلمنا بها أنها تجرى
وحلّت بوادى طور قلب معارف ... زهت فيه كم حسناء فى داخل الخدرِ
وكمْ حكم تجلى ملاح، كأنها ... عرائسُ أبكارٌ على منطق الدرِّ
وكم يدفع الله البلايا بسادة ... من الخلق فى كشفِ الشدائد والضُّرِّ

* * *

فمنْ لم بذا يؤمنْ، فقولوا له إذا ... تجرأ على الغُرٌّ المشايخ بالنُّكرِ
تجلّى فُضولاً فى فضائل سادة ... لهم فى سما مجدِ المفاخر كم قَصْرِ
مقاماتُ أحبابٍ ترى الشهب دونَها ... بنوها بياقوت المواهبِ والدرِّ
تضىء الدّياجى من بهاء جمالها ... بما يهتدى مَنْ للعلا نحوها يسرى
وما تلك من أشباهِ عُشّك، فادْرُجِ ... إلى جوفِ عشٍّ فى الغيابات أو جُحْرِ

* * *

كأسي وخمري..

أحبك حبين: حب الهوى
وحبًا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عمن سواكا

« رابعة العدوية »

نعم هي أشهر النساء اللائي عرفن بالزهد، بل التصوف، فعزفن عن الحياة الدنيا، وتقشفن، وتنسكن، وتعبدن الله، انها ام الخير رابعة القيسية، والتي تغلب عليها الاشتهار برابعة العدوية.. ومن نادر كلامها في النسك والزهد، قولها وقد قيل لها: لو كلمنا رجال عشيرتك فاشتروا لك خادماً تكفيك مؤونة بيتك؟ فقالت وهو من بليغ القول : والله إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسألها من لا يملكها؟.

وتعبيراً عن بالغ خشيتها من الذنب، قولها لمن قال لها: هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك؟ فقالت: ان كان شيء فخوفي من أن يرد علي.

وقال رجل لرابعة: اني قد اكثرت من الذنوب والمعاصي، فهل يتوب علي أن تبت؟ قالت وهو من نادر القول: لا ، بل لو تاب عليك لتبت.

ويروون عن العدوية أنها وهي طفلة خرجت هي واخواتها من شدة الجوع وقت أن نزل القحط بالبصرة فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تقرض الشعر وتغنيه وتعزف على الناي، ولها مزاج فني رقيق وميل طبعي الى الحزن ، ولعلها لذلك كانت تحب الناي عن العود.

وشعر رابعة العدوية فيه لغة النساء، وربما استعملها سيدها للغناء في مجالسه وكان ذلك يسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى أنها شرعت في الهرب وناجت ربها قائلة: «الهي! اني غريبة ويتيمة وأرسف في قيود الرق، ولكن همي الكبير هو أن أعرف أراض أنت عني أم غير راض؟» أي أنها ربما كانت تخشى أن تبوء بغضب الله بسبب ما كان يجبرها عليه سيدها.

وقد زادها ذلك من التهافت على العبادة والابتهال الي الله أن يقيلها من عثرتها، وقد تسمع عليها سيدها فى ليلة فوجدها تقول وهى ساجدة: «الهى! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك، ونور عينى فى خدمة عتبتك، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن خدمتك، لكتك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبدتك!»، فلما كان الصباح طلبها سيدها وأعتقها ، فكان ذلك مدعاة أكثر للتوجه للشكر لربها فانصرفت بكليتها اليه وقد تحررت من رقها.

وكانت اذا انتهت من صلاة العشاء تصعد الي سطح دارها بعد أن تشد عليها درعها وخمارها وتدعو «الهى أنارت النجوم، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك»، ثم تقبل على الصلاة فاذا كان السحر وطلع الفجر قالت: «الهى هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ، أم رددتها على فأعزى؟ فوعزتى هذا دأبى ما أحييتنى وأعتتنى!».

وقد أطلق على رابعة العدوية التى توفيت فى البصرة سنة ١٣٥ هـ اسم »شاعرة المحبة الالهية» ، ويميل البعض الى النظر اليها كأول من تكلم من الصوفيين فى المحبة الالهية ، وأدخل هذا المعنى فى التصوف الاسلامي.

ومن خلال أشعارها في المحبة الالهية ظهرت دعوة رابعة العدوية واضحة جلية، للتقرب الي الله عن طريق حبه.

وها هي ، رائعة رابعة العدوية «كأسى وخمرى» -فى رأينا طبعا- وبعدها «أحبك حبين» أشهر أشعارها وبعدها بعض مقطوعاتها التى وصلتنا وهى قليلة، لكنها شديدة الحلاوة، شديدة العذوبة، ذات ايقاع خلاب، وموسيقى ساحرة:

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة وأنا المشوقة فى المحبة رابعة

كأسى المسرة والنعيم يديرها ساقى المدام على المدى متتابعة

فـــإذا نـظرت فــــلا أرى إلاّ لـه وإذا حــضـرت فــلا أرى إلا مــعــه

يا عــــاذلـي إني أحـبُ جــمـــالَهُ تالله مــا أُذني لـعـذلِكَ ســامــعــة

* * *

أحــبك حـــبين: حب الهــوى وحـــبّــا لأنك أهلٌ لـذاكـــا

فــأمـــا الـذي هو حبُ الهــوى فـشـغـلي بذكـرك عـمن ســواكـا

وأمــــــا الــذي أنت أهــلٌ لـه فكشـفـك للحُـجب حـتى أراكـا

فــلا الحـــمــدُ في ذا ولا ذاك لي ولكـن لك الحـــمــد في ذا وذاكـا

* * *

راحــتي يا اخــوتي في خلوتي وحــبـيـبي دائمـاً في حـضــرتي

لم أجــدْ لي عن هواه عــوضًـا وهـواه في الـبـرايا مــحـنـتي

حـيـثـمـا كـنت أشـاهد حـسنه فـهــو مـحـرابي إليـه قـبلتي

إن متُ وجــداً ومــا ثم رضـا وأعـنائي في الورى وأشــقــوتي

يـا طبــيـبَ القـلـبِ يـا كلُ المنى جُـدْ بوصل منك يشـفي مـهـجـتي

يا ســروري وحــيــاتي دائـمــاً نشــأتي منك وأيضــاً نشــوتي

قـد هجـرتُ الخلقَ جـمـعـاً أرتجي منك وصــلاً فـهـو أقـصى منيـتي

* * *

يا ســروري ومـنيــتي وعــمــاد وأنيــسي وعُــدتي ومُــرادي

أنت روح الـفــؤاد، أنت رجــائي أنت لـي مــؤنس وشــوقك زادي

أنت لولاك يـا حــيــاتي وأنس مــا تشـتـت في فـسـيح البــلاد

كم بدت منَّة وكم لك عندي	من عطاء ونعمةٍ وأيادي
حسبك الآن بغيتي ونعيمي	وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك ما حييتُ براح	أنت مني مُمَكَّن في السواد
أن تكن راضياً عليَّ فإني	يا منى القلب قد باد إسعادي

* * *

ته دلالا..

نصحتك علما بالهوى.. والذى أرى

مخالفتى.. فاختر لنفسك ما يحلو

فإن شئت أن تحيا سعيدا فَمُت بهِ

شهيداً وإلا فالغرام له أهل

« ابن الفارض »

لا يذكر التصوف الا ويأتى اسمه فى أول الذكر، ولا يأتى الحديث عن أشعار الحب الالهى، والترانيم الصوفية، الا وتراه فى المقدمة. إنه إبن الفارض في العشق سلطان العاشقين ــ كما هو عند الصوفية ــ وفي الحب إمام المحبين، وفي الهوي قدوة المقتدين، وفي النظم أشعر المتصوفين، ويراه كثيرون علي أنه الصوفي المصري الأول بلا منازع، وزعيم شعراء الصوفية من العرب.

ولقد اختلفت في ابن الفارض الآراء والأقوال، فبعضهم ينسبه إلي الكفر والقول بالاتحادية، وبعضهم يصفه بالقبطانية ويسرف في الثناء عليه، فمن يكون إبن الفارض؟

هو شرف الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي المصري، المعروف بإبن الفارض، لأن أباه كان يعمل فارضا، أي يثبت الفروض للنساء علي الرجال بين يدي الحكام، فغلب عليه لقب «الفارض» وعرف ولده بابن الفارض.

وإبن الفارض مصري المولد والنشأة والوطن، وكان عميق الحب لمصر، ينوه بها ويتغنى فيها، ولقد عاش في عصر الأيوبيين (٥٥٦ ـ ٦٣٢هـ) وفيه شاع مذهب أهل السنة، وصار فيه للصوفية مكانة، فهو عصر يسوده المذهب السني والاتجاه الصوفي والنزعة الشعرية، ولقد تعاونت علي تكوين شخصية إبن الفارض بيئات ثلاث: الشام، وهي أصله ومنبت أسرته، والشام تغلب علي أهله رقة الطبع، ومصر مكان مولده ونشأته، ولمصر مكانتها، والحجاز وفيه أقام ابن الفارض خمسة عشر عاما، وللحجاز نفحاته.

ولقد نشأ إبن الفارض عفيفا متصوفا، زاهدا متعبدا، ورعا متدينا، درس الحديث وفقه الشافعية، وكان يحب الخلوة والعزلة وكثيرا ما كان يؤوي إلي ناحية في جبل المقطم، تسمي «وادي المستضعفين»، أو في أحد المساجد المهجورة في القرافة.

وحينما سلك ابن الفارض طريق التصوف بدأ بسلوك طريق التصفية والتنقية

والتجريد وقد جمع ابن الفارض بين ثلاث: الشاعرية ذات الحس الدقيق والشعور الرقيق، والصوفية ذات الذوق، والرياضة والمجاهدة، والمحبة ذات العواطف الشريفة والانفعالات العفيفة التي تستبد بها النزعة الروحية التي يصعب علينا تحديدها أو تقييدها.

ولم يخلف لنا إبن الفارض آثارا مكتوبة غير ديوانه الشعري وهذا الديوان ينظر إليه أهل الأدب علي أنه كغيره من دواوين الشعر الغزلي البشري، وينظر إليه أهل التصوف علي أنه ديوان شعر صوفي نظمه صاحبه في الحب الالهي.

ومن الواضح الجلي أن شعر إبن الفارض تسيطر عليه عاطفة الحب، سواء أكان حبا حسيا أو حبا روحيا، وهناك من الباحثين الأدباء من يقرر أن حب إبن الفارض كان في عهد شبابه حبا حسيا، فقد كان في شبابه مضرب المثل في نضارة الجسم والشكل وبهاء المنظر، ولكنه في عهد الكهولة إنتقل إلي الحب الروحي الالهي، ومما يقوي هذا الاستنباط أن بعض الغزل في شعر إبن الفارض يصعب تأويله علي أنه غزل روحي. ومن أمثلة ذلك قوله:

ولما تلاقينا عشاءً، وضمنا	سواء سبيلي دارها وخيامي
وملنا كذا شيئا عن الحي، حيث لا	رقيبٌ، ولا واشٍ بزورِ كلامِ
فرشتُ لها خدي وطاءً علي الثري	فقال: لك البشر بلثمِ لثامِي
فما سمحتْ نفسي بذلك غيرةً	على صونها مني لعزِ مرامِي
وبتنا كما شاء إقتراحي على المني	أري الملكَ ملكِي والزمانَ غلامِي

وسوف نقدم هنا ـ عزيزي القارئ ـ رائعة ابن الفارض «ته دلالا»، التي تمثل درة علي جبين الشعر:

ته دلالاً فأنت أهلٌ لذاكا	وتحكم فالحسن قد أعطاكا

ولك الأمـــرُ مـــا أنت قـــاضٍ | فـــعلىَّ الجـــمـــالُ قـــد ولاَّكـــا
وتلافـي ان كـــان فـــيـــه اتـــلافي | بِكَ، عـــجِّل به جُـــعلتُ فـداكـــا
وبما شـــئت في هـواكَ اخــتـــبـــرني | فـاخـتـبـاري مـا كـان فـيـه رضـاكـا
فــــعلى كـلِّ حــــالةٍ أنت منيِّ | بـي أولـى، وإذْ لم أكـنْ لـولاكـــــا

* * *

وكـــفـــاني عـــزاً بحـــبـك ذُلِّي | وخـضـوعي، ولست من أكـفـاكـا
وإذا مـــا إليـك بالـوصل عـــزَّتْ | نـســبـــتي عـــزَّةً وصحَّ ولاكـــا
فـــاتهـامي بالحب حــسْـبي، وإني | بين قـــومي أُعـــدُّ من قـتـــلاكـــا
لـك فـي الحـيِّ هـالـكٌ بـك حـيٌّ | في سـبـيل الهـوى اسـتلذَّ الهـلاكـا
عـــبـــد رقٍّ مـــارقَّ يومًـــا لـعـــتق | لو تـخَلَيْتَ عـنه مـــا خــــلاَّكـــا

* * *

بجــمـــالٍ حـــجـــبْـتـــهُ ، بجـــلالٍ | هامَ وإســتـــعـذَب العـــذابَ هناكـــا
وإذا مـــــا أمْنُ الرجــــا منه أدنـا | كَ، فـعنهُ خـوفُ الحِـجى أقـصـاكـا
فـبـــإقـــدام رغـــبـــةٍ حين يغـــشـــا | كَ، باحـــجـــام رهبـــةٍ يخـــشـــاكـــا
ذات قـلـب فـــــأذَنْ له يتـــــمـنَّـا | كَ، وفـــيـــه بقـــيـــةٌ لرجـــاكـــا
أومـــر الـغـــمْضَ أن يمرَّ بجـــفْـني | فكـأني به مـطيـــعًـــا عـــصـــاكـــا

* * *

فـعسـى في المنام يعـرضُ لي الـوهـــ | ـــم، فـيـوحي سـراً إلي سُـراكـا

وإذا لم تُنعش بروح التمني رمقي، واقتضي فنائي بقاكا

وحَمت سُنةُ الهوى سنة الغَمْـ ـض جفوني، وحرَّمت لُقياكَا

أبْقِ لي مقْلةً لعلِّيَ يومًا قبل موتي أري بها من رآكا

أين مني مارمتُ هيهاتَ، بل أيـ ـنَ لعيني بالجفنِ لَثْمُ ثراكا

* * *

فَبشيري لو جاء منْكَ بعطفٍ ووجوي في قبضتي، قلت هاكا

قد كفي ما أري دمًا من جُفون بك قرْحى، فهل جرى ما كفاكا

فأجر من قلاكَ فيك مُعنيً قبل أن يعرفُ الهوى يهواكا

هبْكَ أنَّ اللاَّحي نهاهُ بجهلٍ عنْكَ قُلْ لي عن وصله منْ نهاكَا

وإلي عِشْقِكَ الجمالُ دعاهُ فإلي هجْره تري من دعاكا

* * *

أتُرى مَنْ أفْتاكَ بالصدِّ عنيٍّ ولغيري بالودِّ مَنْ أفتاكا

بانكساري بذلّتي بخضوعي بافتقاري بفاقتي بِغناكا

لاتكلني إلى قوى جَلَدٍ خا نَ، فاني أصبحتُ من ضُعفاكا

كنت تجفو وكان لي بعض صبْرٍ أحْسَنَ اللهُ في اصطباري عزَاكَا

كم صدودًا عساكَ ترحمُ شكوا ى، ولو باستماع قَولي عساكا

شنَّع المُرجفون عنك بهجري وأشاعوا أني سَلوتُ هواكا

ما بأحشائهم عشقتُ فأسلو عنك يومًا، دع يهجروا، حاشاكا

كـيف أسلو ومـقلتي كُلمـالا حَ بـريقٌ تـلفّـتتَ للقِـاكـا
ان تنسّمتُ تحت ضوءِ لثـامٍ أو تنسـمْتُ الريحَ من أنبـاكـا
طِبْتُ نفساً إذْ لاح صُبحُ ثنايا كَ لعيْني، وفـاح طيبُ شـذاكـا

* * *

كل من في حِمـاكَ يهـواكَ، لـكن أنا وحدي بكلٍّ من في حمـاكـا
فيك معنىً حَلاكَ في عَيْن عقلي وبه ناظري مُعنىً حِلاكـا
فُقْتَ أهل الجمـال حُسنًا وحُسْني فـبهمْ فـاقـةُ إلى معْناكـا
يُحشـر العاشقـون تحت لوائي وجميع الملاحِ تَحْتَ لواكـا
مـاثناني عنْكَ الضَّنى فبمـاذا يـا مليح الدَّلالِ عنى ثنـاكـا

* * *

لـك قـربٌ ببـعـدك عنيً وحنو وجـدتهُ في جَـفـاكـا
علم الشوق مقلتي سهر اللّيـ ـلِ، فـصارتْ من غير نومٍ تـراكـا
حبَّذا ليلةٌ بهـا صِدْتُ أسـرا كَ، وكـان السُّهـادُ لي أشـراكـا
ناب بدر التمـام طيْفَ مُحـيًّـا كَ لِطرفي، بيـقظتي إذ حكاكـا
فـتـراءيت في سـواكَ لـعينٍ بك قـرّتْ ومـا رأيت سـواكـا

* * *

وكـذاك الخليلُ قلب قـبلي طرْفـه حين راقبَ الأفـلاكـا
فـالـد ياجي لـنا بِك الآن غُـرٌّ حـيث أهديتَ لي هُدىً من ثناكـا

ومـــتى غـبْـتَ ظاهراً عن عِـيـــاني ... أُلفِــه نـحــو باطني ألفــاكـــا

أهـل بُدرٍ ركـبٌ ســـــريتَ بـليلٍ ... فـيـه بل سَـار في نهـارِ ضيـاكـا

واقتـباسُ الأنوار من ظاهري غيـــ ... ـــر عـجـيـبٍ وباطني مـأواكـا

* * *

يعْبَق المسْكُ حيـثـمـا ذُكـرَ اسْمي ... منذ ناديْتني أقَـبَلُ فـاكــا

ويضـــوع العـبـيـرُ في كـلِّ نادٍ ... وهو ذكـرٌ مـعـبـرٌ عن شـذاكـا

قــال لي حــسنُ كـلِّ شيءٍ تجلىَّ ... بي تملي فـقلتُ قـصـدي وراكـا

لي حـبـيـبٌ أراكَ فـيـه مـعـنىً ... غـُـرَّ غـيـري وفـيـه مَـعْنىً أراكـا

ان تـولىَّ عـلى النفـوس تولىَّ ... أوتجلىَّ يسـتـعـبـدُ النُّسَّـاكـا

فـيـه عـوِّضتُ هُـداي ضـلالاً ... ورشادي غـيًّا وسـترى انهـتـاكـا

وحـدَّ الـقلبُ حـبـه فـالتـفـاتي ... لك شِـركٌ ولا أرى الاشـراكـا

يا أخـا العـذْلِ في من الحسْن مثْلي ... هام وجـداً به عـدمْتُ أخـاكـا

لو رأيـت الذي سـبـاني فـيـه ... من جـمــالٍ ولن تراه سـبـاكـا

ومـتى لاح لي اغـتـفـرْتُ سُـهـادي ... ولـعـيـنيَّ قـلتُ هـذا بِذاكـا

* * *

الألسنة والأسماع، هو الذى أغرى كثيرين بالنظر إليه متابعة واستلهاما، يقول واحد منهم يعزف على وتر رابعة:

لما عـلـمـت بـأن قـلـب فــارغ ... ممن ســواك، مـلأته بهـواكـا

ومـلأت كلي منك، حـتى لم أدع	مني مكانا خـالـيـاً لـسـواكـا
فـالقلب فـيـه هيـامـه وغـرامـه	والنطق لا ينفك عن ذكـراكـا
والطرف حـيث أجيله متلفـتـا	في كل شيء يجـتـلي مـعناكـا
والسـمع لا يـصـغي إلى مـتكلم	إلا إذا مـا حـدثوا بحـلاكـا

بل انه ينظر من قريب أيضا إلى أبيات ابن الفارض المشهورة:

لك قـرب مني، بيـعـدك عني	وحنو وجـدته في جـفـاكـا
علّم الشـوق مقلتي سـهـر الليل	فـصارت من غـيـر نوم تركـا
حبـذا ليلة بهـا صـدت اسـراك	وكـان السـهـاد لي أشـراكـا
بات بدر التـمـام طيف مـحـيّـاك	لطرفـي بيـقظـي إذ حـكـاك
فـتـراءيت في سـواك لعين	بك قَـرَّتْ ومـا رأيت سـواكـا

وهي أبيات تدور حول فكرة استحضار صورة المحبوب وتفنن هؤلاء الشعراء العشاق في الإتيان بالصور المبتكرة والمعاني الطريفة، وهو مجال كان لإبن الفارض فضل السبق فيه، من خلال قدرته الفذة على إصطياد عشرات الصور التي يتمثل فيها جمال صورة المحبوب، وتتجلى روعتها وتفردها وتمايزها، أليس هو القائل:

تراه ان غـاب عني كل جـارجـة	في كل مـعنى لطيف رائق بـهـيج
في نغـمة العـود والناي الرخيم، اذا	تألـفـا بين ألحـان من الـهـزج
وفي مـسـارح غـزلان الخمـائل في	برد الأصـائل والاصـباح في البَلَج
وفي مـسـاقط أنداء الغـمـام علي	بسـاط نَوْر من الأزهار مُنتـسج
وفي مـسـاحب أذيال النسـيم إذا	أهدى إلـيَّ سُـحَـيـراً أطيب الأرج
وفي التشـامي ثغر الكأس مـرتشـفـا	ريق المدامـة في مـسـتنزه فـرج
لم أدرِ مـا غـربةُ الأوطانِ وهو مـعي	وخـاطري أين كنا غـيـر منزعج

* * *

ليلى..

قـــد سُـــقتُ فيَ الهـــوى إليكَ مــــهـــجـــتي

وَالدمُ دمعٌ لـغـــــــــــرامي شـــــــــاهـدُ

ولم أقـــــصـــرْ فـــيكَ عن حــــفظِ الـهـــوي

والحــــــرُ مَنْ يحــــــفـظْ من يعــــــاهـدُ

« نجمُ الدين »

قد لا يعرف الكثيرون هذا الشاعر الصوفي الكبير، الذى لم يعطه المؤرخون ما يستحقه من مكانة، كأحد أعلام الأدب والتصوف فى القرن السابع الهجري. والشيخ محمد ابن سوار بن اسرائيل بن الخضر بن الحسن بن على بن الحسين الشيباني المعروف باسم نجم الدين ابن اسرائيل (٦٠٣-٦٧٧هـ) هو أحد أولئك الأعلام الذين جمعوا بين الشعر والاتجاه الصوفي.

وقد بدأ نجم الدين شاعرا غزليا حسيا أكثر منه روحيا، كما يمكن القول ان شعره كان خليعا فى البداية، ثم سرعان ما جاءت لحظة التحول الروحي فى حياته، فدخل عالم التصوف، وأخذ قواعد الطريق على يد الشيخ على الحريري ثم الشيخ شهاب الدين السهروردي، صاحب كتاب «عوارف المعارف».

ولعل هذا هو ما أحدث تغييرا جذريا فى توجهات نجم الدين الشعرية، ولعل الأبيات التالية خير مثال على ذلك:

يا مَنْ يُشيرُ إليهم المتكلم	وإليهمُ يتوجَّه المتظلمُ
وعليهمُ يحلو التأسفُ والأسى	وتلذُّ لوعاتُ الغرامِ المغرمُ
هذا الوجود وإن تعدَّد ظاهراً	وحياتكم ما فيه إلا أنتمُ
وشغلتمُ كلي بكم وجوارحي	وجوانحي أبداً تحنُّ إليكمُ

* * *

وإذا نظرتُ فلستُ أنظر غيركم	وإذا سمعتُ فمنكمُ أو عنكمُ
وإذا نطقت ففي صفات جمالكم	وإذا سألتُ الكائنات فعنكمُ
وإذا سكرتُ فمن مُدامةِ حبكم	وبذكركم في سكرتي أترنَّمُ
وإذا نظمتُ تغزُّلاً في صورةٍ	فلأجل حُسنكمُ المحجَّبِ أنظمُ

* * *

أنتم حقيقةُ كُلِّ موجودٍ بدا	ووجود هذي الكائناتِ تَوَهُّمُ

أنا في وجـودكمُ غـريبٌ بائنٌ　　وغـريبكم مـا بالـهُ لا يُرحـمُ

ويتميز شعر نجم الدين بصدق معانيه، وروعة مخيلته، وسمو مقاصده، وغناء مفاهيمه الصوفية. وسوف نورد هنا غزلية نجم الدين الصوفية الرقيقة «ليلى» التي يرمز فيها للجمال الالهي بليلى، ويقول مؤثرا الموت على الهجر:

هل عـهـد ليلى بالكثيف عـائدٌ　　أم طيـفـهـا لسُقْمِ جسـمى عـائدُ

حـوار حـار العقلُ في صفـاتهـا　　لهـا الجـمـالُ عـاشقٌ وحـاسـدُ

فكل عـضـوٍ بدرٌ طالعٌ　　وكل عطف فـيـه غـصنٌ مـائدُ

فـعطفـهـا وحُسنُ صبـري ناقصٌ　　وحـسنهـا وفـرط وجـدي زائدٌ

* * *

يا كـعبةَ الحسنِ التي أحجُّـهـا　　فـؤادُ مُـضناكَ عليكَ وافـدُ

قد سُقْتُ في الهوى اليك مهجتي　　والدمُّ دمع لغـرامي شـاهـدُ

وطفتُ في مـغناك حـتى مَلّني　　من أرضك الرسـومُ والمعـاهدُ

ولم أقـصّر فـيك عن حفظ الهوي　　والحُـرُّ من يحـفظ مَنْ يعـاهدُ

* * *

وربما يُجـمَعُ جـمعَ شـملنا　　بكم وتصـفـو عِنْدك الموارِدُ

وَعـلَّنا نقـضى مُناتا بمِنى　　وتنقـضى من وصلنا المواعـدُ

* * *

أو لا فـمـوتي فـيكمُ شـهادةٌ　　عليَّ فـيـهـا بالرضى شَـواهدُ

إلى كَمْ، رعـاكَ اللهُ، تنأى وأقـربُ　　وأرضى بما تجنى على وتغـضبُ

فلا أنتَ مثلك ان شكوتُ فيشتفي ... فؤادي وان أعتبْ فما أنت مُعْتَبُ

تكلفتَ لي ذاك الودادَ فلم يدمْ ... وكلٌّ وداد بالتكلفِ يصعبُ

ومَنْ يتكلفْ ضد ما هو طبعه ... تَعُدْ نفسه للطبعِ والطبعُ أغلبُ

* * *

يقولون هندٌ لا تدومُ وزينبُ ... على العهد، كُلُّ الناسِ هندٌ وزينبُ

تطلبتُ ودًا لا يكون لعلة ... فأعْوزَني وجدانُ منا أتطلبُ

وحاولتُ مَنْ يوفي بعهدِ فلم أجدْ ... كأن الذي حاولتُ عنقاءُ مغربُ

تلطَّفْ فإن اللطفَ منك سجيةٌ ... تعطَّفْ فإن العطفَ منك مجرَّبُ

* * *

وان كان لابُدًّا من الهجرِ فاتئدْ ... لعل رحيلي عن جنابكَ يُقَربُ

سأرحلُ عنك اليوم لامستلفتٌ ... بوجهي كأني خائفٌ مترقِّبُ

وأما ودادي فهو باقٍ وإن من ... بقاء ودادي أنني أتعتَّبُ

لن أفعل كسائر الناس!..

لا تلمنى يا سيدى إذا احتسيت الخمرَ والشرابِ

وإذا قضيتُ فى الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيبِ والشبابِ

« إبن أبى الخير »

أبو سعيد فضل الله المعروف باسم إبن أبى الخير، هو أحد كبار اعلام الصوفية الذين عرفتهم بلاد فارس، وهو صاحب المؤلف المعروف "المقامات فى التوحيد"، التى صاغها شعرا بالفارسية، على هيئة رباعيات.

ويقال ان إبن أبي الخير الذى ولد بخراسان وعاش ما بين (٣٥٧ - ٤٤١هـ) أنه أول من ابتدع الشعر الصوفى ، وأول من استخدم الرمزية والقصص فيه، وأول من طوع الرباعيات لكي تحتوي الأفكار الصوفية، ثم سار على دربه باقي من عاصروا، أو تلوه من شعراء الفرس.

وقد درس إبن أبي الخير الفقه الشافعي، وأخذ التصوف عن أبيه، وكانت حياته كلها زهد وتصوف، وتقشف، وكأن يصلي بالليل والنهار ويصوم بالأيام، حتى مات عن ثلاثة وثمانين عاماً.

ويقال أنه لما أشرف إبن أبي الخير على الموت طلب أن يكتبوا على قبره هذين البيتين:

سألتك بل أوصيك ان مت فاكتبي   على لوح قبرى كان هذا متيما

لعل شجيا عارفا سنن الهوى   يمر على قبر الغريب مسلما

ورغم أن إبن أبي الخير كان أحد شعراء عصره الكبار، وأحد الأصوات الصوفية العذبة التي شدت وصدحت بالحب الالهى إلا أنه لم يأتنا من شعره الكثير، لذا ستورد هنا جزءا من شعره، الذى جاء فى الترجمة الرائعة التى قدمها للعربية الدكتور الشواربي، وقد اخترنا لها عنوان «لن أفعل كسائر الناس»:

قلت: حدثني عن جمالك.. من الذى يفوز ببهجته وسناه
فقال: أنا وحدى الفائزُ به.. مادمتُ فى الوجودَ والحياةَ
فإنى أنا وحدى لعاشقٌ والمعشوقُ والعشقُ فى منتهاهَ
وإني. أنا وحدى العينُ المبصرةُ والجمالُ الزاهي والمرآةَ!

***

لا تلمني يا سيدي إذا احتسيتُ الخمرَ والشرابَ
وإذا قضيتُ في الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيبِ والشبابِ
فأنا في إفاقتي أعاشرُ الأحبابَ وغيرَ الأحبابِ
ولكنني متى سكِرْتُ لا أجالسُ غيرَ الأصحابِ!

***

حدثتُ طبيبي عن آلامي الكثيرةِ الخافية
فقالَ لي كُفَّ الحديثَ ولا تتكلم إلا عن صفاتِه العالية
وحذارِ أن تفكرَ في الدارِ الفانيةِ أو الباقية

***

يا إلهي أنا في عثرتي أرتجي عفوكَ ورضاكَ
وأنا في ذلّتي أبتغي رحمتَك ونداكَ
ولنْ أفعلَ كسائرِ الناسِ فأحتمي بهذا وذاكَ
وليس من حامٍ ولا واقٍ في العالمينَ سواكَ!

***

إنشودة الساقي..

تجلي وجـــه مـــحـــبـــوبي
وهـــذا كـــل مـــطـــلـــوبـــي
به صـــبـــري هو الـــواهي
ومـــوتي فـــيـــه مـــرغـــوبي

« النابلسي »

هذا الصوفي الجليل، كان شارحا ـ لا يباريه أحد ـ للطرق الصوفية في عصره، كما كان صاحب أكبر عدد من المؤلفات العظيمة التي تزيد على ١٨٨ مؤلفا. ورغم أن أكثر هذه المؤلفات شهرة حتى يومنا هذه هو كتابه "تعطير الأنام في تفسير الأحلام"، الذي قام فيه بتفسير الرؤى بالاشراقات والمكاشفات، إلا أن باقي لا تقل قيمة عن هذا الكتاب الذي يلتف حوله الناس في كل زمان ومكان ، من العالم الاسلامي الكبير.

ونذكر من مؤلفات هذا الشاعر الصوفي عبدالغني بن اسماعيل بن عبد الغني وشهرته «النابلسي» (الحنفي الدمشقي النقشبندي القادري) الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية، وجواهر النصوص في حل كلمات الفصوص للشيخ محيي الدين بن عربي، وكشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، وزهر الحديقة في ترجمة رجال الطريقة، وايضاح المقصود في معنى وحدة الوجود، ومفتاح المعية في شرح الرسالة النقشبندية، وتحقيق الذوق والرشف في معني المخالفة بين أهل الكشف، والنظر في معني قول ابن الفارض عرفت أم لم تعرف، والسر المختبي في ضريح ابن العربي، والفتوحات المدنية في الحضرات المحمدية، ورد المتين علي منتقص العارف محيي الدين، والفتح الرباني والفيض الرحماني، والصراط المثنوي في شرح ديباجات المثنوي، وبداية المريد ونهاية السعيد، والعقود اللؤلؤية في طريقة السادة المولوية.

وللنابلسي ديوان رائع بعنوان «الحقائق ومجموع الرقائق» ويضم شعره الذي يضم الكثير من المواويل التي تغلب عليها «المصرية» والتي ينشدها المنشدون في حلقات الذكر ومنها علي سبيل المثال لا الحصر:

يا أمةَ العشقِ فز بالبصر والسمع	قوموا اتركوا الفرق عنكم واقبلوا الجمع
نور الشموع الذي يلمع عليكم لَمعْ	من حرقة القلب قد سالت دموعْ الشمع

* * *

قوموا بنا كلنا نخرق حجابَ الطبعِ ونتّبع يا جماعة ما أتى في الشرعِ

حتى نشاهدَ جمال الله يلمع لَمْعْ ولا وجودَ لنا وهو الوجودُ الجمع

* * *

حبيبنا في بديع الحسن حيرنَا بين الحياةِ وبين الموتِ خيرنَا

حكم علينا وبالهجران غيرنا وبعد هذا بسوء الحال عيرنَا

* * *

وشعر النابلسي الذي يفيض عذوبة وحلاوة، وينساب في روعة وسلاسة، يغوص في صريح المواجيد اللالهية، والتجليات، ومنها هذه التجليات في وجه المحبوب، تلك المقطوعة التي ذاعت في حلقات الذكر عن المتصوفة والعشاق:

تجلى وجه محبوبي وهذا كُلُّ مطلوبي

فيا نار العِدا ذوبي بعيداً عنك مشروبي

جمال الأهيف الزاهي وحسن الأغيدِ الباهي

به صبري هو الواهي وموتي فيه مرغوبي

رأينا نورَه أشرقْ فكنا برقه الأبرقْ

ولا نجد ولا أبرق سوى الابريقِ والكوبِ

* * *

علينا الخمرُ قد دارتْ بها ألبابُنا حارتْ

وأطيار الهوى طارتْ بترتيبٍ وأسلوبِ

مليحُ الكون وافانا وزاد الحسنُ إحسانا

وحيّا يوسفُ الأنا فقرتْ عينَ يعقوبِ

* * *

ومع ذلك، تبقى رائعة «النابلسي» التي شغلت الناس طويلا «أنشودة الساقي» معا أعظم ما كتب من شعر لعذوبة ايقاعها ، وخفة روحها، وسحر موسيقاها.

ولعل روعة هذه الأنشودة كانت سببا مباشرا في خلود أبياتها حتى يومنا هذا، ولنر معًا كيف صاغ «النابلسي» أنشودته الخالدة:

ساقي يا ساقي أسقني من خمرةِ الباقي

وَاكْشِفْ لي عن قيدِ إطلاقي آه يا ساقي، آه يا ساقي

* * *

أستارهُ راحتْ عن عيني والزهرة فاحتْ

والسكرةُ بالأسرارِ باحتْ آه يا ساقي، آه يا ساقي

* * *

اكشف لي عنكَ في ذاتي وافتحْ لي دنّك

واجعلني يا حِبّي أنّك آه يا ساقي، آه يا ساقي

* * *

افتح لي بابَ الحانِ واسمعني من طيبِ الألحانِ

وارشفني من كأسِي الملآن آه ساق، آه يا ساقي

* * *

مَنْ يشربْ يسكرُ من خمري لما يتفكرُ

ولامغرور في عِلمه أنكرُ آه يا ياساقي، آه يا ساقي

* * *

لا يعرفُ أمرىْ إلا من يشرب خمري

أحشاؤه تصلي في جمري آه يا ساقي، آه يا ساقي

ظهرت لكل الكون..

وهو ما طابَ عيشٌ لم تكن فيه واصلاً
ولم يصفُ، لا والله، أنَّي له يصفو
عزمت على أن أتركَ الكونَ كُلَّهُ
وأقفوا سبيل الحِب، والمحبتي يقفوذ

« ابن عطاء الله السكندري »

علم آخر من أعلام الصوفية، وأبرز ممثلي التصوف المصري في القرن السابع الهجري. ينتسب إلى الاسكندرية حيث ولد وعاش فيها إلى أن غادرها إلى القاهرة، بعد وفاة شيخه أبي العباس المرسي سنة ٦٨١هـ ، بعد أن صحبه اثني عشرة سنة، وتلقى عنه الطريقة الشاذلية.

وقد كانت بداية ابن عطاء انكارا للتصوف، واعتراضا علي المرسي، ثم استمع إليه، وأعجب به، وسرعان ما عكف عن جمع أقواله، وأستاذه الشاذلي، وترجم لهما، وحفظ تراثهما، وصار داعيا للطريقة الشاذلية.

وقد كان ابن عطاء، وكنيته تاج الدين، أحد كبار أئمة عصره في التسفير والحديث، له اليد الطولي في العلوم الظاهرة ، والمعارف الباطنة، التي وهب لها حياته التي امتدت حتي سنة ٧٠٩ هـ.

ولابن عطاء مؤلفات كثيرة مثل «الحكم العطائية» التي تعد من عيون النثر الصوفي، وأغلبها في صورة مخاطبات موجهة للمريد السالك، و«المناجة العطائية» ، وتعد من روائع الأدب الصوفي، و«التنوير في اسقاط التدبير»، و«تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس»، وهما عبارة عن مواعظ في التصوف.

وكما كان ابن عطاء رائعا في نثره، كان أيضاً رائعا فى شعره الذي لطالما كان منبعا للزاهدين، وقبلة للمتصوفين، ومرجعا للسائلين.

ومن شعر ابن عطاء سنقدم هنا قصيدة «ظهرت لكل الكون» وهي عبارة عن ابتهال إلي الله، يمتزج فيه الأمل بالرجاء:

وكليَ محتاجٌ، وأنت لك الغنى ... ومثلي من يُخْطي، ومثلك مَنْ يعفُو

وأنت الذي أبدى الوداد تكرمًا ... ومثلُك من يرعي، ومثلي من يجفُو

وما طاب عيش لم تكن فيه واصلاً — ولم يصفُ، لا والله، أنّي له يصفُو

عزمتُ علي أن أترك الكون كُله — وأقفو سبيلَ الحبّ، والمُجتبي يقفُو

* * *

شهودكمو يجلو الحجاب لأنه — اذا حقّق التحقيق صار هو الكشفُ

وما أحسنَ الأحبابَ في كُلّ حالة — فلله ما يبدوا ولله ما يخفوا

وإن الأولي لم يشهدوك بمشهدٍ — قلوبُهم عن نيْلِ سر الهوي غلفُ

وأنت الذي أظهرَ ثم ظهرْت في — جميع المبادي مثلما شهدَ العَرف

* * *

ظهرْت لكلّ الكون، فالكون مُظهرٌ — وفيه له أيضًا كما جاءت الصحُّفُ

فأيّ فؤاد عن فؤادك ينثني — وأيةُ عينٍ بعد قربك لن تغفو

وأية نفسٍ لم يُسملها هواكمو — على حُبكم طُرًّا، نفوسُ الوري وقفُ

أيا صاحِ هذا الركبُ قد سار مُسرعًا — ونحنُ قعودٌ ما الذي أنت صانعُ

أترضى بأن تبقي المُخلَّف بعدهم — صريع الأماني، والغرام ينازعُ

وهذا لسان الكون ينطق جهرةً — بأنّ جميع الكائنات قواطعُ

وأنْ لا يرى وجه السبيلِ سوى أمرى — رمى بالسري لم تختدعْهُ المطامعُ

* * *

ومن أبصر الأشياء والحقُّ قبْلهَا — فغيّب مصنوعًا بمن هو صانعُ

بوادهُ أنوارٍ لمن كان ذاهبًا — وتحقيق أسرار لمن هو راجعُ

فـقم وأنظر الأكـوانَ والنورُ عـمّـها ... فـفـخـرُ التّداني نـحْوكَ اليـومَ طالعُ

* * *

وكنْ عـبْـدهُ ألـقِ القـيـاد لحكمـه ... واياك تـدبيـراً فـمـا هو نـافعُ

أتحكـم تدبيـراً وغـيـرُك حـاكمٌ ... أأنـت لأحـكـام الالـه تَـنـازعُ؟

فـمـحـو ارادات وكُـلُّ مـشـيـئـة ... هو الغَـرضُ الأقصى فهل أنت سامعُ؟

كـذلك سـار الأولـون فـأدركـوا ... علـى اثرهـم فَلْيـسَـر مـن هو تـابعٌ

على نـفـسـهِ فليـبْكِ من كـان طالبًا ... ومـا لُمـسـتْ ممن يُحبُّ لـوامعُ

على نفْـسـهِ فلْيـبكِ من كـان باكيًا ... أيذهـبُ وقتٌ وهو بـاللهـو ضـائعُ

* * *

بالنور أشرقت..

يا دولة العز الهني السرمدي
عزل العوازل لا يزال مقطعي
فمتى أجرد سيف عزمي فاتكا
ويفوز «حلمي» رغم أنف المدَّعِي

« ابراهيم حلمي القادري »

ابراهيم حلمي القادري هو شيخ الطريقة القادرية النيازية. التي اشتقت اسمها من الجمع بين اسمي (عبدالقادر الجيلاني ـ عبد الرحمن نيازي) والتي اتخذت من مسجد القادرية بالاسكندرية مقرا لها.

وعلى مدى سنوات عمر القادري التي تقترب من سبعين عاما (١٣٢٢ ـ ١٣٩٠هـ) كان الرجل مثالا فريدا من نوعه للصوفي الذي يغلب علي تصوفه الطابع العلمي الرصين، البعيد عن كل مظاهر التخلف، التي نراها في بعض الطرق الصوفية المعاصرة.

وقد كانت شخصية الشيخ القادري تجمع ما بين الفقيه والمربي والمحقق والصوفي والشاعر الذي جعل من شعره أداة للتعبير عن الموضوعات الصوفية بطريقة رائعة ، ومحكمة، وغاية في البلاغة .

وشعر القادري ينطبق عليه ـ كما هو الحال، في معظم الشعر الصوفي ـ المثل القائل «أطيب الكلام أصدقه». فقد كان شديد الالتصاق بذاته، عظيم التوافق مع نفسه ، غلبت عليه المحبة الالهية، فراح يتغني بها، وينشد أعذب الكلمات، وأرق الألحان.

وعلي الرغم من أن هناك قصائد صوفية خالصة للشيخ الصادري تذخر بها المكتبة الصوفية، إلا أن له اطلالات شعرية علي العديد من القضايا التي شغلت مصر طويلا.

ومع ذلك، يبقي شعر القادري الصوفي مرآة صادقة لتصوف هذا الشيخ الجليل الصحيح، واستغراقه في الحب الالهي.

ونورد هنا رائعته «بالنورأشرقت» التي كتبت أبياتها علي جدران مقامه، وهي مثال واضح علي مدي رقة وعذوبة أشعار القادري الصوفية:

يا سيِّدي أنت الغَياثُ ومَفْزَعي ... ولئنْ بدا للغير فهو تَمنُّعي

لكم الولا ودخيلكمْ يشكو الضنا ... والعبد يكرم بالولاء الأرفع

وبكم عُرفتُ ولي لديكم حُجَّة　　تسمو على فلك الوجود الشُّرَّع

والشمسُ تعلمُ أنني معهودكمْ　　ولها علوت وكان إمر تطلُّعي

* * *

وبها فسال الدمعُ مني تمدُّه　　زفراتُ قلبيَ واصطلامُ الهُلَّع

وبها فأرَّجتُ العطورَ يبثُّها　　خير الخلائق بالدعاء الأجمَع

منها علي الخالين كنتُ مناجيًا　　أهل الهوي والساجدين الطُّوَّع

وعلي المعارج سيِّدي أرقيتني　　وَخلوتُ بالبيتِ المشيدِ ولادَعي

* * *

أقرأتني قدمًا كريمَ خطابكمْ　　وبه انتشأتُ وكان أمنُ تضعضُعي

بالنور أشرقت الحروفُ وكنت لي　　عينا وقلبا واصطنعتَ مسامعي

وسيقتني كأسًا فهِمتُ مناجيا　　ونظمتُ أروع ما يكون ومامعي

غذيتمو روحي وإنَّ فطيمكمْ　　حاشاه يسجد أو يقوم لُمتَنِع

عذلٌ وتبريحٌ وأنَّهُ مُوجَع　　والصبر بعد بهائهِ لمْ يلمع

مَنْ للنزيل إذا شكا مِنْ غُصَّة　　الا الذي مِنْ بِرِّهِ لمْ يُمنع

ألفَ الدخيلُ مكارمًا من عطفكمْ　　وبها فقد طاب الشرابُ ومَرتعي

* * *

والغيرُ ان مرَّتْ عليَّ فخاطري　　تأبي الرفيعَ بِبُهرجٍ وبأرْقَع

صورٌ وأشكالٌ ومتعةُ ناظرٍ　　والوهمُ يخدع بالسرابِ ويلمع

ليتَ الغطاء عَنِ العيون تكشَّفت　　فيبين ما ألفَتْ نفوسُ الطُّمَّع

زرعٌ بلا ثمرٍ وطيرٌ صامتٌ　　صَمَّاءُ عَنْ لحن الشَّجيِّ وسُجَّع

وصوازلُ الأحرارِ خلف زيوفها كالنّازعاتِ الناشطات الهُزَّعِ
يادولةَ العزِّ الهنيِّ السرمدي عزلُ العواذلِ لا يزالَ مُقَطَّعِ
فمتى أجرِّدُ سيفَ عزميَ فاتكًا ويفوز حلمي رغم أنف المُدَّعي
سُحِرَ الفؤاد بلطفكم وجمالكم ولغيركمْ قلبي وسمعيَ لم يَعِ
مازلتُ أهتفُ والهيام ملازمي وعطاؤكم مهما يكن لم أقنعِ
لن أنتهي حتى يكون لوصلكم قبلي الوفاء لِجُلّسي والتُّبّعِ
فلقد سلوتُ ولستُ يومًا ساليًا يا من بهمْ أبقى ويفني مُروَعي
جئتُ الرحاب ونجدتي بولائكم والعُرْفُ يقضيَ بالعطاء الأوسعِ
عارٌ اذا ما الغيرُ يُبدي مِنّةً وعليكم حَبَسَ الرجاءُ تَمتُّعي

* * *

خُلْفُ الوعيد فشأنكم يا سادتي أما الوعود فأجزَلُ وبأنفَعِ
والعودُ يُحْمَدُ باللقاء ووصله يا مَنْ بهمْ حسُنتْ عوائدُ مرجعي
يا آل يثربَ يا كرامَ ماذا جرى لعهودكم وتضرُّعي
فبكمْ إلي المولي العزيز توسُّلي وبكمْ علي الأبواب رَنَّ توقُّعي
بكمُ التوسلُ في الشدائدِ والندي منكم يُسابقُ كالسحابِ السُّرَّعِ

* * *

زفّوا الأمان إلي الكئيب فإنه خَضَبَ المشيبُ نواحيه بالأيدَعِ
ثويَ الرجاءُ بكم وإن بَعُدَ المديَ فأراه يأتي بالنوال الأمتعِ
منّا على حرم الحبيب تحيةٌ تزكو كما يزكو السجودُ لرُكَّعِ
وَمُسَلِّما برقيقةٍ تحدو بها زمرُ الملائكِ والطيورِ السجَّعِ

* * *

حسبي علوا..

لكن تنازع شوقي تارة أدبي

فأطلب الوصل لما يضعف الأدب

ولست أبرح في الحالين ذا قلق

نام وشوق له في اضلعي لهب

« ابن الخيمي »

هذا هو تلميذ إبن الفارض، والإبن الروحي لهذا الشاعر الصوفي الأشهر. ولد شهاب الدين إبن الخيمي في اليمن، أي أنه يمني الأصل، ولكنه عاش معظم حياته التي إمتدت إثنين وثمانين عاما في مصر، حتى توفي سنة ٦٨٥ هـ

وقد سار إبن الخيمي الذي كان يحيا على مقربة من ابن الفارض الذي كان يعامله معاملة الوالد لولده، سار على نفس نهج أقرانه من شعراء الصوفية الذين سادوا القرن السابع الهجري.

ومع ذلك ، فانه يبدو أن إبن الخيمي قد بدأ حياته شاعرا غزليا. ولعل ما يدفع إلي هذا الاعتقاد هو تلك الأبيات التي يصف فيها المحبة التي لا تليق في ظاهرها بالمحبة الالهية:

أيا مَنْ سَلَوا عنا ومالوا إلي الغدرِ ... ومالزموا أخلاقَ أهلِ الهوي العُذرى

ويمد حلاوات التواصلِ والهوى ... جنوا مُرَّ طعم الهجرِ منْ عَلْقَمِ الصبرِ

اذا ما رجعتم عَنْ محبتكم لنا ... مشاةً رجعنا عن محبتكم نجري

وإن كنتمُ في الجهر عنا صددتمُ ... ففي سرِّنا عنكم نصدٌّ وفي الجهرِ

سكنتم فؤادي مرةً ورحلتمُ ... فأصبحَ منكم خالياً خالي السرِّ

وقال لي العذالُ هل أنت راجعٌ؟ ... إذا رجعوا عن غدرِهم قلتُ لا أدري!

ولابن الخيمي أشعار كثيرة في الحب الالهي، ويري الباحثون أن شعره الصوفي يجعله في مقدمة شعراء الصوفية الكبار لرقته، وعذوبته وإبتعاده عن التكلف والصنعة.

ونقدم هنا «بائية» إبن الخيمي الرائعة «حسبي علوا»:

يا مطلبًا ليس لي في غير أربُ ... إليك آل التقصيُّ وإنتهى الطلبُ

وما أراني أهلاً أن تواصلني ... حسبي علواً بأني فيك مكتئبُ

* * *

لكن ينازعُ شوقي تارةً أدبي ... فأطلب الوصلَ لما يضعفُ الأدبُ

ولست أبرحُ في الحالين ذا قلق   نامٍ وشوقٍ له في اضلعي لهب

* * *

ومدمعٍ كلما كفكفت صَيِّبَهُ   صوتًا لذكرك يعصيني وينسكبُ
ويدّعي في الهوى دمعي مقاسمتي   وجدي وحزني ويجري وهو مختضبُ
كالطرف يزعم توحيدَ الحبيب ولا   يزالُ في ليلِه للنجمِ يرتقبُ

* * *

يا صاحبي قد عدمت المسعدين فسا   عدني على وَصَبي لا مَسَّكَ الوصبُ
بالله إن جزتَ كثبانًا بذي سَلَمٍ   قفْ بي عليها وقُلْ لي: هذه الكثبُ
ليقضي الخدُّ من أجراعها وطراً   في تُربها ويؤدي بعضَ ما يجبُ

* * *

وملْ إلي البان من شرقِّي كاظمة   فلي إلي البان من شرقيِّها أربُ
وكلما لاح معنى منْ جمالهمُ   لباه شوقٌ إلي معناه مُنتسبُ
أظلُّ دهري ولي من حبهمْ طربٌ   ومن أليم إشتياقي نحوهم حَرَبُ

* * *

لله قومٌ بجرعاء الحي غُيُبُ   جنوا عليَّ ولما أن جنوا عتبوا
يا ربٌّ هم أخذوا قلبي فلم سخطوا؟   وانهم غصبوا عيشي فلمَّ غضبوا؟
هم العُرَيْبُ بنجد مُذْ عرفتهمُ   لم يبقْ لي معهم مالٌ ولا نَشَبُ
شاكون للحرب لَكن من قدودهمُ   وفاتراتُ اللحاظ السمرُ والقضبُ
فما ألموا بحيٍّ أو ألمَّ بهمْ   إلا وغادرو على الأبيات وإنتهبوا
عاهَدْتُ فى زمن البطحاء عهدي هوي   إليهمُ وتمادتْ بيننا حِقَبُ
فما أضاعوا قديمَ العهد بل حفظوا   لكن لغيرىَ ذاك العهدَ قد نسبوا

* * *

من منصفي من لطيفٍ منهمُ غَنِجٍ   لدنِ القوام لاسرائيل ينتسبُ

مُـبـدِّلُ القـول ظلمًا لا يفي بموا ... عيـد الوصـال ومنـه الذنبُ والغضبُ
تُبينُ لثغـتُـهُ بالـراء نسبَتـه ... والمينُ منـه بزور الـوعـد والكـذبُ

* * *

مـوَحـدٌ فـيـري كلَّ الوجـود له ... مـلكًا ويبطل مـا يأتي به النسبُ
فـعن عـجـائبـه حـدِّثْ ولا حـرجُ ... مـا ينتهي في المليحِ المطلقِ العجبُ
بـدرٌ ولـكـن هـلالاً لاح اذ هـو بـالـ ... وردى من شـفق الخـدَّين منتقبُ

* * *

في كـأس مـبـسـمـه من حلو ريقـتـه ... خـمـرٌ ودُرُّ ثناياه لهـا حَـبَبُ
فلـفظة أبداً سكران يُسـمـعنا ... من مـغـرب اللحنِ مـا يُنسى به الأدبُ
تجنى لـواحظـه فـينا ومنطقـه ... جناية تجـتني من مـرهـا الضـرَبُ

* * *

حلو الأحـاديث والألحـاظ سـاحـرها ... تُـلـقـى إذا نـطـقَ الألـواحُ والـكـتـبُ
لم تـبقِ ألـفـاظه مـعنىً يرقُ لـنا ... لقـد شـكتْ ظلمـه الأشـعـار والخطبُ
فـداؤه مـا جـري في الدمع من مـهجٍ ... ومـا جـرى في سبيل الحبِّ محـتسَبُ

* * *

ويح المتـيَّم شـامَ البـرقَ من إضم ... فـهـزّه كـاهـتـزاز البـارق الخَـرِبُ
وأسكن الـبـرقَ من وجـد ومن كلف ... في قلبـه فـهـو في أحـشـائـه لهبُ
وكـلـمـا لاح منـه بـارقٌ بعـثـتْ ... مـاءَ المدامع من أجـفـانه سُـحبُ
ومـا أعـادت نُـسيـمـاتُ الغـوير له ... أخـبـار ذي الأثـل إلا هزَّه الـطربُ
واهاً له أعـرضَ الأحـبـابُ عنه ومـا ... أجـدتْ رسـائله الحُسنى ولا القـربُ

* * *

سقاني الحب..

أري للقلب نحوكم انجذاباً لأسمع من جنابكم خطابا

فكم ليلٍ بقربكم تقضى إلي سحر سجوداً واقترابا

وكم من نشوةٍ وردتْ نهاراً فلا خطأ وعيتُ ولا صوابا

« ابن قضيب البان »

ربما لا يعرف الكثيرون أن أبو الفيض عبدالقادر بن محمد (٩٧١ ـ ١٠٤٠هـ) الذى اشتهر بإبن قضيب البان هو أحد أئمة التصوف الذين ولدوا ونشأوا في بلاد الشام (حلب) ثم وصلوا مصر فاستقروا فيها ليعلوا ذكرهم، وينتشر صيتهم . ويتقلدوا ما يخلد اسمهم قرونا من الزمان.

وعندما استقر المقام بأبى الفيض فى مصر، زاد اتاجه الصوفى المتيمز حتى بلغت مؤلفاته العظيمة فى التصوف أربعين كتابا أشهرها «نهج السعادة» ، و«الفتوحات المدنية»، ونفحة البان» ، و«المواقف الإلهية»، و«رسالة فى أسرار الحروف»، و«شرح أسماء الله الحسنى» ، و«مقاصد المقاصد»، و«عقيدة أرباب الخواص».

ولما كانت مؤلفات أبى الفيض تدل على رسوخ قدمه فى التصوف والمعارف الالهية، فقد بشره شيخ الاسلام يحيى بن زكريا القاضى بمصر وقتذاك بمشيخة الاسلام وبايعه على الطرق الثلاثة: النقشبندية والقادرية والخلوتية.

ولابن القضيب البان ديوان شعر على لسان القوم، وله تائية عارض بها تائية ابن الفارض، وكلماته تفيض بالجو الصوفى الروحانى، والرموز الصوفية المعروفة، التى تتجسد فى شعر الصوفية.

وها هى ذي بعض من أبيات ابن قضيب البان الرائعة التى تروى جانبا من تصوفه، وما تعلقت به نفسه فى الحب الإلهى:

سقانى الحبُّ من خمرِ العيانِ فتهتُ بسكرتى بين الدنانِ
وقلت لرفقتى رفقاً بقلبى وخاطبتُ الحبيبَ بلا لسانِ

* * *

شربتُ لحبه خمراً سقانى كصحبى فانتشى منها جنانى

شَطحتُ بشربِها بين الندامى ورشدى ضاعَ مما قد دهانِى

* * *

فهام أولو النهى من بعد سكرى وغابوا فى الشهود عن المكانِ
مُريدى! لا تخفْ واشطحْ بسرى فقد أذن الحبيبُ بما حبانى

* * *

فأكرمنى وتوَّجنى بتاجٍ يقوم بسره قطب الزمانِ
وأمرنى على الأقطاب حتى سَرَى أمدى بهم فى كل شانِ
وأطلعنى على سر خفى وقال الستر من سر المعانى

* * *

فهرس

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

أحلى قصائد الصوفية



الحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الالهية موضوعا يدور حوله ، وفيه يصف الحب ولذته ، وما يجده من لوعة وأسي أو قرب ووصال . وكذلك ما يمر به في تصوفه من مقامات وأحوال ، ومجاهدة مستمرة للنفس ، وما يتعرض له من فيض رباني ، والهام قلبي ، وسمو روحي .

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الالهي الغامر الذي نراه ينقسم شقين : شق يتعلق بحب الله تعالي للعبد . . واخر يتعلق بحب العبد لله ، وكلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون .

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء علي عدد من أشهر شعراء الصوفية ، الذين قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعاً وتراثاً انسانيًا خالدًا آملين من المولي عز وجل ان يحظي برضاك ، واستحسانك .

مجدى كامل

